طائر الحجل
الجريح

بسم الله الرحمن الرحيم

طائر الحجل الجريح

حسين أمين أوزتورك

رواية

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

Yaralı Keklik

Hüseyin Emin Öztürk

طائر الحجل الجريح

حسين أمين أوزتورك

ترجمة
ياسمين الضامن

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة
بإشراف الدكتور غياث المكتبي - شيم حقوق

قامت دار المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر عن

Nar Yayınları
NAR ÇOCUK

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

محفوظة جميع الحقوق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

القسم الأول

ذاتَ ليلةٍ واحدةٍ ، حيث كان يجلس في النادي الموجود في القرية . . . نظر من النافذة وبعدها أشعل مصباحه ، ثمَّ رمى بعصاه الغصن . أضاف قليلاً من اللوز للعسل . . . وعندما أظلمت آفاق السماء ، حضر جميع الأطفال . طلبوا منه أن يروي لهم قصة . . . أكلوا اللوز بالعسل . . . امتزج الحلم بالحقيقة ، وتصالح الذين كانوا متخاصمين . . . حتَّى الطيور أنصتت له . . . فلنستمعْ يا أطفال لما قاله الجدُّ درويش .

استعاذ الجدُّ درويش بالله من الشيطان ، وبدأ يروي قائلاً : « أنتم لا تعرفون طُيُوري الحبيبة ؛ لأنكم لم تسمعوا بها ولم تشاهدوها ولم ترَوْها . إذا كان الله لم يُظهرْها ، هل تُرى ؟ بالتأكيد لا تُرى ! لأنكم أصلاً لم تكونوا قد وُلدتم بعد » .

في أحد فصول الشتاء الخوالي هطلت الثلوج على قريتنا نَدْفاً نَدْفاً . . . بعدها ذاب الثلج على شكل قطرات أهداباً أهداباً . . . فُرشت الثلوج كحِرامٍ أبيض فوق التربة السوداء . . . عوتِ الذئاب في

الجبال ، أما تلك الأغنام التي سمعت صوت الذئاب تعوي فانسحبت عائدة إلى زرائبها . بقيت الطرق مغلقةً بالثلوج أشهراً .

لا أحدَ يخرج من قريتنا إلى المدينة ، ولا أحدَ يأتي من المدينة إلى قريتنا ، حتَّى الجبال والأحجار بردتْ ، لكنَّ حرارة المحبة التي في قلوبنا لم تبرد .

كان هناك طفلٌ في قريتنا ينتظر خبراً منذ أشهرٍ ، كانتظار الأرض لِما تحت الثلج . كان ذلك الطفل هو فيصل الصغير حفيد حمزة شاويش . كان فيصل طفلاً وسيماً مثلكم ويشبهكم . . . كان ذا عينين خضراوين وشعر أشقرَ غامقٍ وصاحب خدود ممتلئة ، طوله الفارع يظهره بشكل أجمل كالفتيان .

دعوني أَقُلْ : إنه كان يبلغ من العمر عشرة أعوام ، أو أحد عشر عاماً . كان في الصف الرابع في المرحلة الابتدائية من المدرسة .

كان والد فيصل يعيش في ألمانيا . وقد مرَّ عامان على ذهابه إلى هناك . وخلال تلك الفترة لم يتمكَّن من العودة سوى مرة واحدة فقط . عندما أتى في الربيع الماضي ، أحضر معه لفيصل معطفاً وساعة وكرة جلدية . وأحضر لأم فيصل ملابسَ ، ولدى رؤية فيصل أمَّه مرتديةً تلك الملابس ، قال : « إنها تليق بك كثيراً يا أمِّي الحبيبة » .

أصبحت أخته هجران تبدو كالفراشات عندما ارتدت الثوب ذا الأشرطة الذي أحضره والدها لها . ركضت هجران إلى حضن والدها ، فضمها إلى صدره قائلاً : « ابنتي ملاكي ! » كان فيصل الطفل الوحيد الذي يمتلك كرة جلدية في المدرسة ، حتَّى في أيام الربيع التي كانت فيها أضواء الشمس الذهبية سخية بأشعتها ، لم يتوقف فيصل عن ارتداء معطفه الأزرق . كان في بعض الأيام يقدِّمه لصديقه أحمد كَيْ يرتديه هو أيضاً .

كان ذلك الربيع ربيعاً جميلاً أيضاً . فتح أبو فيصل جذور قضبان العنب فقلمها ، ثمَّ ألقى بها في الحفر . حمل فيصل وأمه قضبان العنب المقلمة إلى حقل الكروم ، أما هجران فجمعت الزهور البرية باقةً باقةً . في تلك العشرين يوماً قاموا بتقليم القضبان وتسميد الجذور ، وكي لا تدخل حيوانات الصيف فيها ربطوا أطرافها ولفُّوها بالشجيرات .

أتى الربيع ، لكن لم يكن ربيعاً على قريتنا ولا على بيت أهل فيصل ، كأن الربيع هذا العام ليس كالربيع السابق . كانت تلك العشرون يوماً في شهر نيسان بالنسبة لفيصل وهجران عيداً ، كانت الشمس دافئة . في تلك العشرين يوماً آلاف الابتسامات برعمت على خدَّيْ هجران . كان فيصل أيضاً كطيور القفص المحبة للحرية ،

لا يستطيع التوقف يريد الطيران من أجل الطيران من شدة الفرحة .

« أيام معدودة ستمر بسرعة » . هكذا قالت طُيُوري الحبيبة .

مرَّت تلك العشرون يوماً كأنها عشرون ساعةً . وفي ليلة اليوم سيعود والدهم ثانية إلى ألمانيا .

قالت والدة فيصل متوسلة : « لا تذهب ! فلتعمل هنا ونكسب رزقنا من هنا . هل نحن الوحيدون الذين لا نستطيع ؟ ألا يوجد لدينا لقمة خبز هنا ؟ من الصعب بالنسبة لي أن أكون أماً وأباً في آن واحد للأطفال يا حسن ! كما أنني ليس لديَّ أشقاء ، دعني أحتمي تحت جناحك في الأيام العصيبة . لديَّ أمٌّ عجوزة ، هي أيضاً بحاجة إلى جناح تحتمي تحته . المرأة من دون زوج تشبه الطائر بلا جناح يا حسن ! تبقى دائماً في العش . لا تتركني هنا من دون جناح وبلا أذرع » .

اغْرَوْرَقَتْ عينا أمينة بالدموع وأطبقت رموشَها عليها فسالتْ دموعُها كالخرز على خدَّيها وبعدها مسحت عيونها الهرمة بحجابها .

قال زوجها : « أتظنين أنني لست حزيناً ؟ لكم شوقٌ دائم يا أمينتي الجميلة . فليكن لي عمل في المدينة ، وبيت مع حديقة أيضاً ، ولتكن حياتنا أفضل أيضاً ، أريد أن يدرس فيصل وهجران

في مدارس راقية ، إنني أتحمل أسى ألمانيا لأجلكم . إذا عملت سنة أخرى فسيكون لنا كثيرٌ من المال الذي أستطيع من خلاله أن أجد عملاً ، فلنصبر قليلاً أيضاً ، هل نحن وحدنا نحترق من الشوق ؟ هناك مئات الآلاف ، هم مثلنا يتجرَّعون بالغربة والغمِّ ، فلنصبر يا أمينة ، ألا تنضج الفواكه بالصبر ؟ في الربيع القادم دخلي سيزيد ، وسنقلِّم حقل كرمنا الجديد جميعاً ، ونحصد محصول العنب معاً عنقوداً عنقوداً ، ماذا سيكدرنا ويقلقنا بعدها ؟ انظري ابنك كالأسد بجابنك من الآن فصاعداً ، لست بلا ذراع وبلا جناح » .

رَبَتَ أبو فيصل بلطف على شعر ابنه النائم وانحنى ببطء ، وقبَّل خدَّيه ، ثمَّ نظر إلى هجران بمحبة وطبع قُبلةً على شعرها وخدَّيها .

آن أوان الفراق ، كان صباح يوم الثلاثاء ، حيث أخذ رجب الأعرج والد فيصل بالباص . كان هناك ازدحامٌ ؛ حيث كانت والدة فيصل وأخته وجده وأقاربه مجتمعين للوداع صامتين مغلوبين على أمرهم ، هجران وفيصل ليس لهما سوى البكاء لا حول لهما ولا قوَّة . كان صباح ذلك الثلاثاء أشد ظلمة من الليالي الظلماء بالنسبة لفيصل . كان فيصل يا طُيُوري الحبيبة ينتظر فراقَ والده .

لقد جاء الرَّبيع إلى قريتنا فذابت ثلوج الجبال وسالت جداول وأنهار فخرَّ الماء إلى البحار خريراً ، أما أشعة الشمس فغطت

الأرض باللون الأخضر ، أزهرت زهور الأقحوان بيضاءَ ، كما زين الزعفرانُ الجبالَ .

تسلقت حيوانات ابن عرس الأشجار . أما أزهار النرجس فتفتحت بأشكال مختلفة ومتنوعة . عندما حلَّ الربيع برعمت الأشجار الغصونَ بسرور . اجتمعت الشِّياه مع حملانها وعادت طيور اللقلاق الى أعشاشها ، أما والد فيصل فلم يعدْ بعدُ من الغربة . حزن فيصل وأخته هجران وأمهما كذلك .

في المساء طهت السيدة أمينة البقلة الخضراء ، وقبل أن يعمَّ المساء وضعت الطعام . كانت هجران دائماً تفرش المائدة قبل الأكل وتزيلها بعد الأكل . وذات يومٍ ، حيث كانت أمُّهم تحضر الطعام في المطبخ ، رأت أن هجران لم تفرش المائدة بعد ، فنادت عليها قائلةً : يا ابنتي ! هل نسيتي أن تفرشي المائدة ؟

لم تجب هجران في البداية ، ثمَّ قالت باكيةً : « رأسي يؤلمني يا أمي » .

تركت السيدة أمينة من يدها الصينية ، التي كانت تمسكها بيديها على الأريكة ، وأسرعت باتجاه ابنتها هجران ، وأمسكت بيديها بحنانٍ ، ونظرت إليها بإمعانٍ وبعيونٍ مليئةٍ بالاهتمام . في تلك اللحظة شعرت بأن الألم يقطع أماكن من جسدها .

قالت السيدة أمينة : « يا ابنتي إن حرارتك مرتفعةٌ » . أكلت هجران بعض اللقيمات ، ثمَّ تركت المائدة ، لم يكن لديها شهية للطعام . حتَّى فيصل لم يأكل ، وسرعان ما نظفت أمهما المائدة وأخذت هجران على استعجال إلى بيت الممرِّض بكير .

نظر الممرِّض بكير قليلاً إليها ، ثمَّ سأل : « متى بدأ هذا معها ؟ » .

حقنها الحقنة من غير أن يؤلمها ، ثمَّ سكب قليلاً من الكولونيا على قطعة من القطن وضغط بها على مكان الحقنة قليلاً ، ثم قال : « يبدو أنها أخذت برداً يا أختُ أمينة . لا تقلقي ستنخفض درجة حرارتها بعد الإبرة وتتحسن ابنتكم . لا يوجد ما يخيف ، سيزول كل شيء إن شاء الله » .

عاد الممرض بكير مرة أخرى إلى بيته في الظلام ، وبقيت السيدة أمينة في بيتها ذي السطح الترابي هي وهجران وحرارتها المرتفعة وحدهم .

مرَّت أيامٌ ، أما مرض هجران لم يمر . لم تَعُدِ الحقن التي كان الممرض بكير يحقنها إياها بأيِّ فائدة ، ولم تَعُدْ حرارتها تنخفض ، بل كانت تزداد أكثر . ذبلت هجران ذات الخدود مثل الوردة ، بل ركدت مثل عصافير الدوري البلدية التي كانت تزقزق . ارتبكت أمها

ولم تعلم ما تفعل . أشاروا عليها بأن تسقيَها الزيزفون ، فسقتها ، وغيرهم أشار عليها بأن تطهوَ لها أشياء حلوةً فطهتها ، ومنهم من قال لها : دعي الطفلة تتعرَّق . فوضعتها تحت الحرامات البيضاء حتَّى تعرَّقت .

قالوا لها : « لا تحزني يا أختاه ! سيزول » ، لكن مرض هجران لم يَزُلْ .

كان سعالها يزيد ومنظرها يحزن من يراها . وفي إحدى الليالي تقيَّأت هجران أكثر من مرة ، جلس فيصل في إحدى الزوايا وبكى . شعرت أمها بأنها كطَيْر جناحه مكسور ومحطَّم داخل البيت حتَّى الصباح . دعَوُا اللهَ أن تتحسن حالة هجران . ونذرت السيدة أمينة نذراً على أن لا تموت هجران ابنتها . وفي الصباح الباكر أخذوها إلى المدينة .

كانت الدقائق تمرُّ كأنها سنة بالنسبة للسيدة أمينة وهي في المستشفى ، كانت هجران شاردة الذهن وهي راقدة في حضن أمها ، لقد ذبلت كما تذبل الوردة ، قبَّلتها أمها واشتمت رائحة شعرها الأشقر .

وعندما أتى الدكتور سأل غاضباً : « لماذا تأخرتم ؟ أين أنتم إلى الآن ؟ » .

ـ « ليس لي أحدٌ » . قالت السيدة أمينة مبتلعة ريقها من الخوف .

ثم سألت : « هل حالتها صعبة ؟ ما هو مرض ابنتي هجران ؟ » .

ـ « يبدو أنها مريضة بالتهاب السحايا الدماغية » .

ـ « هل هو سيِّىء جداً ؟ ساعدها يا دكتور ؟ أرجوك افعل شيئاً لتنجوَ ؟

ـ « يجب أن تنام في المستشفى » .

لا حول ولا قوَّة لأمينة ، كان قلبها يحترق ببطء كأنه ذاب قطراتٍ سالت من عيونها .

باتت هجران في المستشفى وبقيت أمها بجانبها أيضاً .

لم ترفع عيون فيصل وجدِّه عن طرق القرية . في إحدى الليالي أتت هجران إلى حلم أخيها فيصل كأنها طيرٌ ، كانت تطير من غصن إلى غصن ، وكان فيصل يحاول الإمساك بها ، لكنه لا يستطيع ، وإذ بقناص يظهر من بين الصخور ويريد إطلاق النار على هجران ، في ذلك الوقت يصرخ فيصل بأعلى صوته : « طِيري يا هجران ! طِيري ! » .

أيقظ صراخ فيصل جدَّه ، وسرعان ما عانقه قائلاً : « بسم

الله ! » ، ثمَّ قال محاولاً أن يعيده للنوم : « لا تخف يا بُنيَّ ! ما رأيته مجرَّد حلم ، ستنجو هجران » .

بعد عدَّة أيام وصلت رسالة من ألمانيا إلى حمزة شاويش ، فطلب من فيصل أن يقرأها له . ومن شدة انفعاله لم يتمكن فيصل من قراءتها ، لم ترَ عيونه الباكية التحيات فيها ، كان كل ما علق في ذهنه هو جملة واحدة ألا وهي : « لقد تعرَّضت لإصابة عمل يا أبي ؛ ولذلك لم أتمكن من القدوم » .

سأل فيصل جده باكياً : « ما هي إصابة العمل ؟ » .

أجاب جده : « وهل لي أن أعلم يا بُنيَّ ؟ . . . فليسلمه الله ، لنشكر الله ، سيتحسن في أقرب وقت إن شاء الله » .

وقبل أن يعلم أهل القرية بخبر إصابة العمل التي تعرض لها والد فيصل ، علموا بخبر أسودَ عن هجران ، لقد بكت الغيوم في السماء لدى سماعها ذلك الخبر ، وبكت جداول المياه والأنهار ، كما بكت الأزهار والفراشات ، وبكت الأغنام وأحمالها أيضاً لدى سماعها ذلك الخبر المؤلم . لم يبق من لم يبك في قرية كليجيك يا طُيُوري الحبيبة .

* * *

القسم الثاني

كلما فتح فيصل كتاب دورسه يتخيل هجران داخله . كان يجد من هجران شيئاً في كل مقالة في الكتاب وفي كلِّ صورة فيه . لا يدخل ما يقرؤه في ذهنه من أيِّ قبيل ، حتَّى أنه يستحضر أيامه مع أخته أثناء شرح المعلم للدرس فتشرُد عيناه كثيراً ، لقد كان يشرُد لدرجة أنه لم يكن يسمع الأسئلة التي يسأله إياها الأستاذ خليل .

بعدما كان فيصل الذكي المجتهد الأول على صفه أصبحت حالته سيئة ، بل هي تسوء من يوم لآخر ، حتَّى أن أستاذه استغرب من حالته تلك ، فحاول أكثر من مرَّة أن يواسيه وينسيه همَّه ، لكن ذلك كان دون فائدة . لم يستطع الأستاذ خليل أن يُنسي فيصل أخته هجران .

لقد كان فيصل يرى أخته في أحلامه في الليل دائماً ، حيث أصبحت هجران طيراً يطِير من غصنٍ إلى آخر ، فيركض فيصل دون توقف محاولاً أن يمسك بها ، لكنه لا يستطيع ، ثمَّ يخرج ذلك القناص من بين الصخور يصوب ببندقية كبيرة نحوها ليطلق النار

عليها ، ولدى رؤيته ذلك يصرخ فيصل بأعلى صوته : « طِيري يا هجران طِيري ! » بقي فيصل على هذ الحال ثلاث ليال ، بل خمس ليال ، حتَّى لم يعد جد فيصل يتحمل حالته هذه ، وفي إحدى الليالي اصطحب فيصل معه إلى الأستاذ يوسف وأخبره أن هناك ما يخيف الصبي .

لم يمر بعدُ عام واحد على قدوم يوسف إلى القرية كإمام .

كان لديه صوت جميل ؛ عندما يقرأ القرآن كانت قلوب المستمعين تقشعرُّ وتخشع عيونهم دامعة لا سيما لدى ندائه لصلاة الصبح في الأذان ؟ حتَّى الطيور كانت تقطع زقزقتها وتستمع للأذان . لقد كان يوسف شاباً في منتصف العشرينات طويل القامة ذا عيون عسلية وشعر أشقر . كان شعره المنساب على جبهته يغطي حاجبيه أحياناً ، أما شارباه فيكادا يريا من بعيد .

لقد كان يدرس في كلية الحقوق ، كما أنه شخص حسن الخلق ذو كلام متَّزن . كان الجميع في قريتنا يحب الإمام الشاب يوسف ، ولأنه كان عازباً ؛ فهو لا يخرج ولا يذهب يعيش في مسكن الجامعة ، ويقضي وقته في قراءة الكتب .

وفي بعض الأحيان يذهب وصديقه مصطفى إلى الجبال للتنزُّه ، ويعودان أحياناً يحملان أزهاراً مختلفة الألوان تفوح منها رائحة المسك .

نادى حمزة شاويش من الخارج : « يوسف ! يوسف ! » .

التفت يوسف بسرعة قائلاً : « خيرٌ إن شاء الله يا تُرى من القادم في هذه الساعة من الليل ؟ » ، ثمَّ فتح الباب .

ـ « يا الله ! أهذا أنتم يا جد حمزة ؟ تفضلوا بالدخول إلى الداخل » .

دخل حمزة شاويش ، ومعه فيصل إلى الداخل وقبل الجلوس ألقى حمزة شاويش تحية السلام ، قائلاً : « السلام عليكم » .

أجاب يوسف تحية السلام ، ثمَّ قال : أهلاً بكم ، لا تؤاخذونني ، هكذا يكون بيت الأعزب ، مهما حاول الرجل أن يكون مرتباً ، فإنه لا يستطيع أن يكون مرتباً ومنظماً كما تفعل النساء » .

ـ « المهم في الاستقرار والتنظيم أن يكون في داخل الإنسان ، أما الفوضى الخارجية فسرعان ما يمكن تنظيمها » .

أراد يوسف تغيير الموضوع ، فقال : « عذراً سأحضر لكما الشاي حالاً » .

ـ « لا تتعب نفسك يا بُنيَّ » .

ـ أيُّ تعب يا جد حمزة . كأنكم تأتون إلى التكية دائماً ؟ هل يتعب عمل كوب شاي ؟ » .

أعدَّ يوسف الشاي وقدَّمه لضيفيه .

قال الجد حمزة الشاويش : يا أستاذ ، أنت تعرف أن هجران التحقت بالدار الآخرة منذ ما يقارب شهر ، كان ألماً وراء ألم . عندما علمنا أن حسناً قد تعرض لإصابة عمل لم نخبره بموت هجران ، أنت تعلم ماذا يحدث للمريض إذا وصل له خبر مؤلم ، أما الآن القلق والخوف على ابنه فيصل ، الذي لا يأكل ودائم التفكير في أخته التي يتألم ويحزن من أجلها ، حتَّى أنه لم يعد جيداً في دروسه ، وضعه سيِّىء في هذه الأيام ؛ ففي كل ليلة يستيقظ يصرخ من الأحلام التي تخيفه .

ما أريد قوله أن تقرأ له قليلاً من الرقية يا بُنيَّ ، فربما يزول خوفه وينسى ما حدث إن شاء الله ، ألا تقف الأرض والسماء بالدعاء على أقدامها ؟ أنت شاب يافع والله يقبلُ دعائك نحن نعرف أن دعاء اليافعين مقبول عند الله » .

خجل يوسف قليلاً من كلام الجد ، ثمَّ نظر إلى فيصل بتمعُّن من طرف عينه ، كان فيصل لا يرفع نظره عن السجادة المفروشة على الأرض ، وعندما رفع رأسه تقابلت عيناه بعيني يوسف .

قال يوسف لنفسه : « يا الله كم يشبه عينيه ! » .

أحسَّ بوجع في قلبه ، فنظر يوسف مرة أخرى ممعناً النظر فيه من

رأسه إلى أقدامه . كيف يكون هناك تشابه إلى هذا الحد ؟ إنه يشبه أخي تماماً ، هكذا حدَّث نفسه بداخله .

مَنْ هو ؟ من أخوه ذلك ؟ الله فقط من يعلمه .

عندما رأى الجد حمزة ما فيه يوسف من ضياع وتشتت ، قال : « لقد أقلقنا راحتك في هذه الساعة من الليل يا بُنيَّ يوسف » .

ـ كيف تقول هذا يا جدِّي ؟ مصابكم هو مصابي وهمك هو همي » .

بعد برهة من الصمت ، سأل يوسف : هل بدأ فيصل يشعر بعدم الراحة بعد موت أخته هجران ؟

رد الجد حمزة شاويش : « نعم ، عندما رقدت هجران في المستشفى أول مرة ؟ » .

ـ حسنٌ هل أخذتموه إلى الطبيب ؟

ـ لم نستطع أن نأخذه يا أستاذ .

ـ دعنا أولاً نأخذه إلى الطبيب لنرى ما سيقول لنا وأنا سأرقيه من جديد . أنت كبير في السن يا جدُّ لا تستطيع المشي ، وبهذه الحالة يكون المشي في المدينة صعب عليك . أنا أستطيع أن آخذ فيصل غداً الى المدينة ، والقارىء عليٌّ سيقيم الصلاة ، لا تقلق إن شاء الله ستزول مخاوف فيصل » .

ـ إن شاء الله يا بُنيَّ ، لكن ستتعب نفسك كثيراً .

ـ تعب ماذا يا جدُّ حمزة ؟ ليس هناك تعب ، إنه رحمة .

أخرج حمزة شاويش من جيب معطفه بعض المال أجرة الطبيب الذي سيفحص فيصلاً ، ومدَّ يده بها إلى يوسف قائلاً : « خذ يا أستاذ ، ادفع هذا المبلغ أجرة الطبيب » .

ردَّ يوسف : « ضعها في جيبك بسرعة ، سآخذها من والد فيصل فيما بعد ، لا تفكِّر في هكذا أمور ، يكفينا أن يشفى فيصل ، إذا لم تكف النقود التي معي عندها سآخذ منك . لا تغتم يا جدِّي حمزة ، دائماً الأيام السوداء تظلم ، ثمَّ تزول ، فلكل ليلة صباح ، ولكل صعود نزول ، في الصباح خير ، إذا أردت دع فيصلَ الليلة عندي لنتعارف ونصبح أصدقاء » .

ـ « لا أعرف » .

ـ « هل تريد البقاء يا فيصل ؟ هل تبقى يا بُنيَّ عند الأستاذ يوسف ؟ سيأخذك غداً إلى المدينة » .

كان فيصل واقفاً ورأسه مائل إلى الأسفل ، بعد برهة قال بصوت متراخ : « قد تقلق أمي عليَّ » .

قال يوسف : « نعم فيصل محقٌّ ، نحن لم نفكر بهذا ، بالتأكيد ستقلق أمه عليه ، إذاً نلتقي غداً صباحاً مقابل الباص » .

خرج الجد ومعه فيصل قائلاً : « أراحك الله » .

وفي طريق الأستاذ يوسف وفيصل إلى المدينة تحدث يوسف عن أيام شبابه وذكريات طفولته وأيام المدرسة الداخلية مطولاً .

أما فيصل فلم يتكلم كثيراً ، بل استمع كثيراً لما أخبره به يوسف بفضول . أخذ يوسف فيصل إلى أحد معارفه من الأطباء القديرين . قام الطبيب بفحص فيصل بدقة وتركيز ، وبعدما انتهى قال لفيصل :

« تبدو هزيلاً قليلاً ، لا يوجد ما يقلق » . وبعدها اصطحب الطبيب فيصل إلى غرفة منفصلة وقال له : « لا تشعر بالضيق يا بُنيَّ ، أخبرني ما هي الأمور التي تخيفك ؟ » .

أجاب فيصل على أسئلة الطبيب بما يملك من قوة . وبعد هذا الفحص الطويل اصطحب الطبيب يوسف إلى الداخل وقال له : « يجب أن يأخذ هذا العلاج » ، ثمَّ أعطى الوصفة التي كتبها إلى يوسف ، فقال ليوسف : « إن شاء الله بعد أسبوعين لن يبقى به شيء وسيتحسن ، لا يوجد أي أثر جانبي للدواء ، لو حدث شيء تعالوا إليَّ ثانية . كما قلت لك سابقاً يا سيد يوسف يجب الاعتناء بالصبي وتسليته وترفيهه . بالسلامة مرة أخرى » .

شكر يوسف الطبيب فوضع الوصفة الطبية في جيبه ، ودفع أجرة الطبيب قائلاً : « نستودعك الله » . ثم خرج مع فيصل .

وأول ما فعلاه بعد خروجهما من عند الطبيب كان شراء الدواء ، ثمَّ تناولا معاً الطعام في أحد المطاعم الجميلة . أدى يوسف صلاة الظهر في أكثر مساجد المدينة شهرة ألا وهو مسجد العظيم ، أما فيصل فانتظره عند نافورة الماء في بهو المسجد .

وبعد إتمام الصلاة تجوَّلا في السوق ، نظرا إلى نوافذ عرض الملابس في المحلات واشترى يوسف بعض الكتب من بائعي الكتب ، ثمَّ توجَّها إلى قلعة المدينة ، واطَّلعا عليها عن كثب لبرهة من الوقت . وبعدها استراح الاثنان على المقاعد في الحدائق والمتنزهات . كما اشترى يوسف الذرة وأكلا سوياً .

كانت تلك أول مرة يضحك فيها فيصل منذ وفاة هجران . لقد أحب يوسف ، كان يقول لنفسه : « ليته كان لي أخ أكبر منِّي هكذا مثله . كم هو قريب من القلب وكم هو طيب ! » .

فهم يوسف ما يشعر به فيصل ، فقال : « طالما كنت أريد أن يكون لي أخ مثلك فيصل » .

ـ ألا يوجد يا أستاذ ؟

ـ لا يوجد أشقاء لي . لدي شقيقات أكبر منِّي . أنا الأصغر .

ـ وأنا أيضاً طالما كنت أريد أن يكون لي أخ أكبر مثلك . لقد أحببتك يا أستاذ .

ـ حسنٌ دعنا نفترض أنني أخوك الأكبر ، تستطيع أن تقول لي يا أخي يوسف ، هل اتفقنا ؟

« اتفقنا يا أخي يوسف » . رد فيصل ضاحكاً ، وضحك يوسف أيضاً .

رَبَتَ يوسف على شعر فيصل وضمه إلى صدره وتعانقا ، ثمَّ قال : هيا بنا كي لا يفوتنا الباص ، وإلا سنبقى هنا ، فليس الصيف وحده ، بل سنبقى في الحديقة سنتان » . ثم ضحك الاثنان معاً . وبعد صلاة العصر تحرَّكا من المدينة بباص رجب الأحدب .

في ذلك اليوم همست الأشجار في قرية كلاجيك بعضها لبعض عن صداقة يوسف وفيصل . فهمت الأزهار في ذلك اليوم أن الربيع قد حان ، فضحكت الطيور في ذلك اليوم حتَّى شبعت وانتظرت أغصان الأشجار بلا صوت أياماً الربيع غير الضاحك . أيقظت ضحكات الأطفال الأقحوان . شكروا الله ؛ لأن فيصلَ يضحك .

كان ينقل من لسان إلى آخر يا طُيُوري الحبيبة عن إخوة يوسف وفيصل .

لم يعد فيصل يهذي في أحلامه ، ولم يَعُدْ يشرد ذهنه في الدروس ، بل إنه استطاع بمساعدة يوسف أن يعدل وضعه في الدروس التي كان فيها ضعيفاً . ابتهج الأستاذ خليل للتحسن الذي

حقَّقه فيصل ، ولشكر يوسف ذهبَ مديرُ المدرسة والمعلِّمون الآخرون ذات مساء إلى بيت يوسف .

قال السيد المدير : « يا أستاذ . أقول لك من أعماق قلبي : إن وجود إمام مثلك في قريتنا يعد حظاً كبيراً بالنسبة لنا . من دون مساعدتكم لما استطاعت الفتيات القرويات أن يذهبن إلى المدرسة لغاية الآن . لقد بذلنا قبل مجيئكم إلى القرية جهداً كبيراً مع أصدقائنا ، لكننا لم نتمكن من إقناعهم بأمر إرسال الفتيات إلى المدينة . كما أنكم أعدتم فيصلَ إلى حياته الطبيعية بعدما خاصمته الدنيا . دعني أتحدث بصراحة ، وأقول لك : إنني معجب بقدرتكم على الإقناع » .

ردَّ يوسف خجلاً : « شكراً جزيلاً . في الواقع أنا فعلت ما يجب أن يُفعل يا سيدي المدير ، كل ما في الأمر هو قليل من الاهتمام وقليل من الحب . إذا كان من الواجب قول الحقيقة فإنني أحب فيصلَ مثل حبي لأخي ، فهو ذكي جداً وحساس ومهذب . يا له من صبي ! لا سيما أنه تأثَّر بوفاة أخته . كنت على وشك أن أنسى أن أسألكم : كيف أصبحت دروس فيصل ، إن شاء الله لم يعد ضعيفاً ، كان يقول دائماً أنه سيكون الأول على صفه هذه السنة » .

قال الأستاذ خليل : لقد عدل وضع دروسه ما شاء الله . لكن من

الصعب من الآن أن نقول : إنه سيكون الأول على صفه ، عندما يصدر تقرير نتائج الطالب يتبيَّن ذلك » . وضحكوا جميعاً معاً .

وبعد أسبوعين وزعت التقارير ، وبدأت العطلة الصيفية ، وسرعان ما تسلَّم فيصل تقريره أخذه مسروراً ، وركض به إلى يوسف .

ولدى رؤية يوسف تقرير نتائج فيصل احتضنه بحنان وعطف وقبَّل خدَّيه بمحبة .

في أحد الأيام ، وفي وقت الظهيرة من أول أسبوع في شهر آيار التقى فيصل وأحمد أمام بيت الأستاذ يوسف ، وعندما رآهما قادمين ، خرج الأستاذ يوسف لهما .

ـ أنا مستعد يا أولاد . علينا فقط المرور عند القارئ عليٍّ . على كلٍّ حال لن نتمكن من الذهاب إلى صلاة الظهر .

وذهبوا معاً إلى القارئ عليٍّ ، فوجدوه يعمل في الحديقة ، قال يوسف له : إنهم سوف يذهبون في نزهة إلى الجبال ، وإذا لم يكن فيها أي إزعاج أن يقيم صلاة الظهر بدلاً عنه .

أجاب القارئ عليٌّ : ماذا تقول يا أستاذ ! وهل يُعقل أن يكون هناك إزعاج في تنفيذ أمر الله ؟

شكروا القارئ علياً ، ثمَّ مشوا فنادى من خلفهم : « لا تنسوا أن تجلبوا لي نبتة الزعتر معكم » .

كانت المزروعات في الحقول كثيرة وغزيرة وطولها يصل الركبة . أما الأعشاب البرية والمزروعات الخضراء ، فكانت تتسابق تماماً كسجادة خضراء مطرزة تطريزاً كالنقش على أطراف التلة ، ورائحة الزعتر العطرة تبعث من الجبال وتفوح في المكان .

كانت طيور الوقواق تزقزق من بعيد ، فيظهر أحد الأرانب ، ثمَّ يختفي بين المزروعات . على التلال كان هناك نسر يحدق بتمعُّن باتجاه جدول المياه ، وطيور البط البري هوت إلى الجدول فرادى وجماعات . كانت كروم العنب كثيرة في كيزلرماك .

وبينما كان يوسف وفيصل وأحمد يتبادلون النكات ، ويسألون بعضهم الأحجيات صعدوا إلى سفح جبل سيفري .

مضى على خروجهم من القرية ما يقارب ساعة .

تناول الأصدقاء الثلاثة الغداء على هضبة جبل سيفري ، كان على المائدة التي فرشوها فوق الأعشاب بندورة وخيار وجبنة وزيتون وبيض . تابع الأصدقاء الثلاثة تناولهم الطعام بالبهجة والسرور ، وبعد الانتهاء من الطعام حَمِدَ يوسفُ اللهَ . كان فيصل أول مرَّة يدرك أن القرى المحيطة جميلة لهذه الدرجة ، وأول مرة يعيش لذة الفرح والسرور ، وهو يشاهد السهول والقريات الموجودات بعيداً من أعلى التلال .

قال فيصل بحماس : انظروا ! انظروا ! يوجد شخص على المئذنة يا أخي يوسف . أشار بسبابته له .

كانت المئذنة البيضاء الشاهقة تظهر من بين شجر الحور . كان القارىء عليٌّ يؤذن لصلاة الظهر من على المئذنة ، وصوته الشجي العذب يرتفع على سفوح جبل سيفري .

وبينما كان يوسف يصلِّي صلاة الظهر كان فيصل وأحمد يجمعان الزعفران ، وبعدما انتهى يوسف من أداء صلاة الظهر بدأ بجمع الزعتر للقارئ عليٍّ ، اشتم ضمة الزعتر التي جمعها ، ثمَّ قطف زهور التوليب ولمَّها باقةً باقةً . وبعدها قال لنفسه : « سبحان الله كيف أبدع خلقها ولوَّنها كأنها مطرزة ومنقوشة » .

قبَّل زهور الخُزامى الموجودة على الجبل بهدوء من دون أن يقطفها ، أتى فيصل وأحمد راكضين متحمسين ، إذ كان فيصل يحمل بيديه شيئاً ما ، فقال بحماس : « أخي يوسف انظر ماذا وجدنا » .

ـ ماذا وجدتما يا مشاغبين ؟

ـ بيضةَ طير يا أخي يوسف ، بيضةَ طير .

ـ بيضة طائر الحجل ؟

ـ نعم بيضة طائر الحجل .

ـ هل تؤكل يا أخي يوسف ؟

ـ من أين حصلتم عليها ؟

ـ إلى الأمام قليلاً بين الأعشاب .

ـ هل كانتا اثنتين فقط ؟

ـ نعم اثنتان لم تفقُسا بعدُ .

بدأ يوسف يفكِّر قليلاً ، ثمَّ قال بسرور : « اسمعا يا أصدقاء لقد تبادر إلى ذهني شيء جميل جداً » .

ـ ما هو يا أخي يوسف ؟ سأل الاثنان بفم واحد .

ـ لدى الجدة خديجة دجاجة جلست أمس على البيض ليفقس ، فلنضع هاتين البيضتين بين بيضها .

ـ وهل يجوز ذلك يا أخي يوسف ؟

ـ ولماذا لا ؟ إن فترة التفقيس للدجاج هي ذاتها لطيور الحجل .

ـ هل يعني أننا إذا وضعنا هاتين البيضتين تحت الدجاج ، فإنهما سيفقسان ويخرج منهما طيرا حجل ؟

ـ بالطبع .

قال فيصل وأحمد ببهجة : « مرحى الذكاء ! » ، ثمَّ تركوا باقي صغار الحجل على الهضبة وغادروا جبل سيفري . شربوا الماء حتَّى

ارْتَوَوْا من النبعات . نزل فيصل وأحمد من أعلى التلة راكضين ، حيث كانت رائحة الزعتر البرّي تبنعث من هناك . كان يوسف في عجلة من أمره كي لا تفوته صلاة العصر . تفتَّحت في قلب فيصل أزهار وردية من الأمل . كان كل من فيصل وأحمد سعيدين ويوسف أيضاً .

مضى على وضع بيضتي الحجل تحت الدجاجة غولبيك سبعة وعشرون يوماً . غولبيك هي أسمن وأحب دجاجة لدى الجدة خديجة . كأن تلك السبعة والعشرين يوماً لم تمرَّ على فيصل وأحمد بسهولة ، كانا يذهبان في اليوم من أربع إلى خمس مرَّات خلسةً إلى قنِّ الدجاج ، ومن دون أن يعلم أحد ينظران إذا ما كانت قد فقست البيضتان ، وخرج صغار الحجل أم بعدُ ، من دون أن يعرف أحد أن البيضتين موجودتين تحت الدجاجة غولبيك ، حتَّى الجدة خديجة لم تكن تعلم بوجودهما ، كان يوسف هو الوحيد الذي أعلمه فيصل وأحمد بذلك .

في أحد أيام الصباح انطلقت الجدة خديجة على عجلة إلى قنِّ الدجاج . قالت لنفسها : « ستراً يا ربُّ ! ماذا حدث لي ؟أصبحت في هذا العمر ، ولم أر شيئاً كهذا . على الأغلب اقتربت الساعة ! أيكون هذا صوصاً ؟ » .

ومن شدة الانفعال هُرِعَتْ إلى بيت الأستاذ يوسف ، فنادت : « يوسف ! يوسف ! » .

فتح يوسف الباب قائلاً : « تفضلي يا جدة خديجة » .

ـ آه ! هل كنتُ سأرى هكذا أيام يا بُنيَّ ؟

ـ خيرٌ إن شاء الله يا جدة . ماذا حدث ؟

ـ والله هل هو خير أم شر لا أعرف . أصبحت في هذا العمر ، ولم أر في حياتي مثل هذا الشيء هل يعقل ذلك يا عزيزي ؟

ومن دون أن يعرف سأل يوسف : « ما هو ذلك الشيء يا جدة خديجة ؟ » .

ـ آه ، لا تسأل يا بُنيَّ ! لقد قلت لك : إن غولبيك الآن في فترة التفقيس وهي تجلس على البيض .

ـ حسنٌ . . .

ـ هذا الصباح عندما نظرت بين الصيصان كان هناك صوصان ، لا تسألني إذا كنت قد رأيت مثلهما من قبلُ . لقد توترت ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل . هل هو ثواب من الله أم عقاب أم جزاء ؟ لم أستطع أن أعرف . هيا بسرعة ، تعال دعني أريك إياهما . كم هما لطيفان هذان الصغيران .

بالكاد استطاع يوسف أن يمسك نفسه كي لا يضحك .

قالت الجدة مبتسمة : كما أنني عندما رأيتهما قلت : هذه من علامات يوم القيامة .

دخل الاثنان قنَّ الدجاج ، فحمل يوسف فرخ طير الحجل الذي خرج للتوِّ من البيضة . لو لم تكن الجدة خديجة موجودة لما سمحت غولبيك ليوسف أن يدخل قنَّ الدجاج ، أما لوجود الجدة خديجة ، فإنها لم تخرج أي صوت عندما لمس يوسف صغارها .

قال يوسف : « كم هو لطيف ! كم هو جميل ! انظري يا جدة خديجة ! » .

زلَّ لسان يوسف قائلاً : « لم أتوقع أن يكونا هكذا » .

سألت الجدة : « ماذا تقصد ؟ » .

ـ أقصد . . .

ـ وإلا فإن كل هذا تنبيه لي .

ـ تنبيه ماذا ! قال يوسف ضاحكاً : « يا جدتي الحبيبة ، هذه هدية جميلة من الله لك . أحضرها الأطفال ؛ لأنهم أحبوها . حتَّى طيور الجبل تلجأ إلى قنِّ الدجاج خاصتك » .

ـ ماذا ؟ هل هما من طيور الجبل ؟

ـ نعم بالتأكيد إنهما من طيور الحجل يا جدتي . فراخ طيور الحجل .

ضحك يوسف ومازح الجدة وبعدها شرح لها كلَّ شيء . في البداية وقعت الجدة خديجة في الحيرة مما سمعت كأنها تجمدت ، ثمَّ لم تتمالك نفسها وضحكت كثيراً لما سمعت . لقد شعرت باضطراب وحيرة أول ما رأت صغار طيور الحجل .

* * *

القسم الثالث

وعندما علم فيصل وأحمد بخروج صغار طير الحجل من البيض ذهبا مسرعين إلى قنِّ دجاج الجدة خديجة . لم تسمح لهم الدجاجة غولبيك يقتربان من صغارها . في الزاوية شاهدا صيصان دجاج لونها أصفر ، وبينها حجلان صغيران جداً يحاولان المشي ، وبالكاد يستطيعان .

بدأت الجدة خديجة بجسِّ الشعيرات الصغيرة عليهما ، وقبل أن تقبِّل مناقيرهم أحبوهما ، لم تتمالك نفسها وبدأت بالدعاء . حملتهما وببطء أعطتهما صغار طيور الحجل .

بدا على الصيصان أنها غارت من صغار الحجل ، فلم يسمحوا لهما بالأكل من علفهم . لم تكن غولبيك في البداية تخرج أي صوت ، لكنها مع مرور الأيام بدأت هي أيضاً تغار من جمالهما والاهتمام الذي يلقيانه . لقد شعر الطَّيْران بالملل من القنِّ . أرادا الطَّيَران أو الهرب بعيداً في الجبال . أدركت الجدة خديجة كل ذلك ، وفي إحدى الليالي أخذت الطَّيْرَيْن من قنِّ الدجاج ، وذهبت إلى بيت يوسف .

ـ يا بُنيَّ لقد شعرت غولبيك بالغيرة من هذين الصغيرين ؛ لا تريدهما بينهم . انظر إلى هذا الجمال ! لو كنت مكان غولبيك أنا أيضاً سأغار منهما . ما أجمل ما خلق الله ! هل يعقل ألا يحدث غيرة ؟ أن لا يحدث عدم محبة منهما ؟

أخذ يوسف طيري الحجل من بين يديها ورَبَتَ على جناحيهما وقبَّل رموشهما واحداً واحداً ، ثمَّ قال : ما أجمل ما خلق الله ، في الواقع يا جدة خديجة لا يمكن أن لا يُغار منهما أو لا يُحبَّا » .

ـ ما دامت غولبيك غارت منهما أنا سآخذهما كضيوف عندي . وسيكونا صديقين لي أيضاً . أنا سأعتني بطيور الحجل . لقد جمع فيصل وأحمد من أجلهما من البراري ما يأكلان ، لن يبقى ضيفانا جائعين ، لا تقلقي .

وفعلاً لم يتركوا صغيري الحجل جائعين ؛ حيث جمع فيصل من الجبال الخسَّ ، أما أحمد فجمع العشب من المروج ، أما الجدة خديجة فأعطتهم الجبنة والعنب والقمح .

وبعد برهة كبر صغار طير الحجل قليلاً ، كانوا يطعمونهما ويشرِّبونهما ويغذونهما ، ما جعلهما يكبران بسرعة .

كان فيصل وأحمد كل يوم يذهبان إلى بيت يوسف ، لقد ابتهج الاثنان لدى رؤيتهما طيور الحجل الصغيرة تكبر شيئاً فشيئاً ، في

تلك الفترة علَّمهما يوسف الأدعية ، وروى لهما الحكايات وأسدى لهما النصائح . كبر الطَّيْران وأصبحا يطِيران في غرفة يوسف قليلاً كالجنادب .

قال يوسف لأحمد : « أغمض عينيك » .

أغمض أحمد عينيه بسرعة ، فسأله : « عصفور من في يدي ؟ » .

ـ عصفور أحمد .

ـ حسنٌ ، تستطيع فتح عينيك .

ـ وهل هذا الصغير لي ؟ « سأل فيصل » .

ـ نعم هو لك .

رَبَتَ فيصل فرحاً على شعيرات الحجل الصغير وقبَّل منقاره .

قال يوسف : « من الآن فصاعداً أنتما سوف تعتنيان بهما حتَّى يكبرا . ستأخذانهما في المساء إلى بيتكما . حذاري أن تُخبرا أحداً بوجودهما في بيتكما . وفي اليوم التالي لليوم الذي يبدأن فيه بالزقزقة ، ستفتحان قفصهما وتطيِّراهما من فوق المئذنة باتجاه الجبال . فلنرَ طيرَ مَنْ سيزقزق أولاً . بالحقِّ ماذا ستسمونهما ؟ » .

قال فيصل من دون تفكير : « سيكون اسمُ طيري هجرانَ » .

أما أحمد فقال : « سيكون اسمُ طيري سلطاناً على اسمِ أختي الكبرى » .

قال يوسف : « الاسمان جميلان » .

وعندما احتدمت ظلمة الليل ، أخذ فيصل وأحمد طيري الحجل بسرور تملؤه البهجة إلى بيتيهما . صنع جدُّ فيصل لطير فيصل قفصاً من ورق الصفصاف الرقيق ، ثمَّ صبَّا الرمل أسفل القفص وبدؤوا يرشون حبوب القمح له كل صباح ، كما وضعوا الماء أمامه . أكل صغار الحجل في بعض الأيام خساً وبعضها الآخر جراداً . كما أكلوا الحبوب التي جعلتهما يكبران ، ومضت الأيام التي كانا فيها صغيري حجل .

كانت أيام مضت عندما كان الطير صغيراً ، من الآن فصاعداً لم يعد صغيراً .

في أحد الأيام أيقظ طير الحجل فيصل وأمه بصوت زقزقته ، فنهض فيصل مسرعاً من سريره بحماس ، ثمَّ قال مسروراً : « هجران تزقزق يا أمي » .

ـ ترى هل صاح طيرُ أحمد أيضاً ؟ « قال فيصل » .

ـ لا أعرف .

ـ سأخبر أخي يوسف .

ـ هل ستطيِّرون هجران ؟

ـ ألا نطيِّرها ؟ ما رأيك ؟

ـ طيِّروها طيِّروها طبعاً . طيِّروها . فلتلتقِ بأمِّها في آن .

اغْرَوْرَقَتْ عينا السيدة أمينة بالدموع فقامت ومشت بخطوات مثقلة إلى المطبخ . ذهب فيصل مسرعاً تملؤه البهجة والسرور إلى بيت يوسف ، وبدأ يدقُّ .

دقَّ باب البيت بعجلة ونادى : « أخي يوسف ! أخي يوسف » .

لم يأت جواب ، فلم يكن يوسف في البيت . توجَّه فيصل باتجاه بيت القارئ عليٍّ وسأله .

ـ ذهب الأستاذ يوسف إلى المدينة ، لقد أخذ إجازة عطلة من دائرة الإفتاء ؛ لأن لديه امتحانات .

ـ متى سيعود ؟

ـ في كل الأحوال ، لن يعود قبل أسبوع .

ـ ماذا ؟ أسبوع ؟

ـ هل هناك شيء ما يا بُنيَّ فيصل ؟

ـ لا يوجد شيء يا عمُّ . كنا سنلتقي اليوم فقط .

ـ هل كان الأستاذ يوسف على علم بهذا ؟

ـ كان يعلم ولا يعلم .

لم يفهم القارئ عليٌّ ما قصد فيصل ، فقال لنفسه : « يبدو أن شيئاً أصاب هذا الصبي » .

لم يبقَ أحد في القرية لم يسمع صوت طير فيصل . ذهب جميع الأطفال إلى بيت فيصل مثنى وفرادى ، لقد أحبوا طير فيصل كثيراً .

قال سليم ابن الصياد دوران : « بعْ لنا الطير » .

ـ لا ، لا أبيع هجرانَ .

ـ هل يوجد لها اسم أيضاً ؟

ـ نعم اسمها على اسم أختي .

ـ إذا بعتها سيصبح لديك نقود كثيرة .

ـ حتَّى ولَوْ . لا أريد بيعها . عندما يأتي أخي يوسف سنطيِّرها من فوق المئذنة إلى الجبال .

ـ وهل يُطيَّر الطَّير الذي تم اصطياده ؟

ـ نحن لم نصطدْه .

ـ إذاً كيف أمسكتم به ؟

لم يُجب فيصل على سؤاله . لم يرد أن يبيع طير الحجل لا لسليم ولا لغيره . أصلاً لم يكن يحب سليم أبداً ، كما أن أباه لم

يكن محبوباً في قريتنا . ففي الأيام التي لا يذهب فيها للصيد كان لا يخرج من المقهى . النقود التي يكسبها من القمار ينفقها على المشروب . في غياب زوجته كان يبقى مترنِّحاً في حقله من دون عمل .

ذات مساء أتى أحمد مسروراً إلى فيصل ، وكانت عيناه تضحكان ، فقال : « لقد بدأ سلطان بالتغريد يا فيصل » .

ـ حقاً ؟

ـ نعم ، لقد كنت ألعب مع الأصدقاء لعبة ، وأثناء ذلك بدأ يزقزق عند أمي ، لم أرد ترك اللعبة ، لكن أمي قالت : « لدي خبر سارٌّ لك » ، فذهبت مسرعاً . وإذ بي أرى سلطان هناك يزقزق بشكل جميل . كنت على وشك أن أطير من الفرحة . هل تزقزق هجران أيضاً بهذا الشكل الجميل ؟ » .

ـ نعم ، كما أنها تزقزق كلَّ يوم . كلَّ يوم ساعة كاملة بعد الصلاة ، وساعة كاملة أيضاً في المساء .

ـ بالمناسبة متى سنطلقهما ليطِيرا من فوق المئذنة ؟

ـ عندما يعود أخي يوسف .

ـ متى سيعود ؟

ـ من المؤكد أنه سيعود يوم الجمعة . اليوم هو الأربِعاء ، هذا يعني بعد يومين .

ـ لم يتبقَّ مَنْ لم يسمع صوت طَيْرِكَ في القرية .

ـ لقد سمعوا زقزقته ، من الآن فصعدا سيسمعون صوت طَيْرِكَ أنت أيضاً . لا تقلق .

لم يتبقَّ في القرية من لم يسمع بصوت طير أحمد أيضاً . كانت القرية بأكملها متحيِّرة : كيف استطاع الصبيان الإمساك بطيري الحجل الصغيرين . كان أطفال القرية يتشوَّقون لرؤية طيري الحجل ، ويسألون دوماً كيف استطاع أحمد وفيصل الإمساك بهما .

لم يتمكَّن يوسف من العودة يوم الجمعة ؛ لذلك أقام القارئ عليٌّ صلاة الجمعة بدلاً عنه . قلق فيصل وأحمد لعدم عودته ، كما قلقت كلُّ القرية .

في ذلك اليوم خرج الصياد دوران لصيد طيور الحجل . لم تزقزق طيور الحجل التي كانت موجودة في القفص لمدة طويلة .

كان هناك صوت يُسمع من أسفل الحواجز ، استمع الصياد دوران بإمعان ، قال لنفسه : « إنه يشبه صوت ذكر الحجل » .

كما بدأ طيره يزقزق أيضاً ، ما جعله يبتهج لصوت زقزقة الحجل . كانت تأتي من بعيد أصوات كثيرة جداً لطيور الحجل . عندما لم يتمكَّن من الإمساك بهم شعر بوجود قفص آخر للطيور ، فنظر من أعلى التلة إلى أسفل الحواجز .

رأى الصياد دوران سيارة متروكة على جانب الطريق وسط الحواجز .

ـ إنها تشبه تكسي حيدر . « هكذا قال لنفسه » .

أنزل القفص الذي على الغصن وبدأ بالسير إلى الأسفل . كان أرنب السيد حيدر يسبح وصديقه الآخر يلعب تحت شجرة الصفصاف وحوله النار مشتعلة . ولدى رؤية الصياد دوران ابتسم السيد حيدر . كان السيد حيدر يعرف صيادي قريتنا .

ـ تعال بسرعة يا عريف دوران .

هكذا كان يدعوه بالعريف .

ضحك السيد حيدر ، وعندما ضحك ظهرت أسنانه الذهبية في فمه . كان الآغا حيدر رجلاً متوسطَ الطول وسميناً يبلغ من العمر ما بين خمسة وأربعين إلى خمسين عاماً .

ـ نحن محظوظون اليوم يا آغا . « قال الصياد دوران ضاحكاً » .

ـ هذا ما أعتقدُه يا عريف دوران . وأنا قادم تعطلت سيارتي بين الحواجز . إنَّ قدومك هو حظٌّ لي .

ـ هل يوجد ما أستطيع أن أساعدُ فيه يا آغا ؟

ـ نعم إذا سمحت ابدأْ بعمل السَّلَطة .

ـ يا آغا !

وفي حرٍّ تمُّوز تحت أشجار الصفصاف وظلالها الباردة بدأ الاثنان بطهي الأرنب . وقام الصياد دوران بإعداد السَّلَطة وقطع البطيخ أيضاً . أكل الآغا حيدر وصديقه الصياد دوران ، وشربا كثيراً ، فلم يجوعا أياماً بطولها . أخفى الصياد دوران زجاجات المشروب المتبقي نصفها بين كروم العنب خفيةً .

قال الآغا حيدر مشيراً إلى طير الحجل الذي في القفص : « في يوم ما ستحمرُّ هذه السحنة العنيدة على اللهب » .

ردَّ الصياد دوران بفضول : « خيرٌ يا آغا » .

ـ لقد أساء لسمعتي في المسابقة في الأسبوع الماضي . في كل أسبوع تعقد مسابقة في النادي المفروض فيها أن تسمع زقزقة طيور الحجل ، لغاية الآن لا أحد كان يفوز على الآغا حيدر في المرتبة الأولى ، إلى أن فاز طيرُ الأصلع رشد .

ـ لا تقلها يا آغا .

ـ أقولها . لقد أساء لسمعتي بشكل صريح . صاحب أجنحة النمش هذا . آكل التوت لم يزقزق في المسابقة ، لا يمكنك أن تتخيل كم ساءت سمعتي . إذا لم أكن الأول في المسابقة القادمة سأفصل رأسه عن جسده .

ـ ربما يا آغا أنه غير مرتاح أو أنه منزعج .

ـ وأنا ظننت ذلك أيضاً .

ـ كيف هي زقزقته في هذه الأيام ؟

ـ يزقزق لكن دون رونق . أحتاج طيراً أصغر سناً منه .

ـ يا آغا . عندما قلت طائراً أصغر تبادر شيء إلى عقلي .

ـ ماذا تبادر إلى عقلك يا عريف دوران ؟

ـ يوجد طائر حجل منذ أسبوع يزقزق في قريتنا . لا تسأل كيف . أنا صياد على مدار سنوات لم أسمع قط صوت طائر حجل بهذا الجمال .

ـ لا تقلها يا عريف دوران ! حقاً ؟

ـ حقاً يا آغا هكذا .

ـ حسنٌ ، لمن هذا الطير ؟

ـ لحفيد الجد حمزة صبيٌّ يدعى فيصل .

ـ لصبيٌّ ؟

ـ نعم إنه صبيٌّ .

ـ وكيف لصبيٌّ أن يصطاده ؟

ـ أنا أيضاً لم أستطع استيعاب ذلك .

ضحك وجه الآغا حيدر ، وسكت برهة كأنه يترصد لصيد حيوانات وحشية ، ثمَّ عاد إلى الصياد دوران وسأله : ألا يبيعه يا ترى ؟

ـ لا أعرف يا آغا ربما يبيعه .

ـ إذا أراد بيعه اشتره لي . أكون ممتناً لك .

ـ ماذا تدفع مقابل الطير يا آغا ؟

ـ إذا كان مثلما وصفت لي ، لك منِّي عشرة آلاف ليرة . هل اتفقنا ؟

ـ عشرة آلاف ؟

ـ نعم عشرة آلاف ليرة . أما أنت فبكم سوف تشتريه من الصبيِّ فلا أعرف . الصبيان ساذجون .

قال الصياد بسرور : حسنٌ يا آغا ، نلتقي هنا الأحد المقبل . لا تقلق يا آغا أعلم أن طير الحجل سيكون في القفص .

وبينما كان الآغا حيدر يعبث بأسنانه بواسطة عود ثقاب قال : حسنٌ .

وعندما اقترب وقت العصر نهض الاثنان ، وأخذا البنادق المعلَّقة على شجرة الصفصاف من أجل اصطياد طائر الحجل ، فتسلَّقا باتجاه سفوح تلة تشلي .

كان الصياد دوران يحمل القفص ، لكن الصياد دوران عاد في ذلك اليوم بلا جدوى . وبسبب عودته من الصيد بلا شيء في كلِّ يوم استشاط غضباً .

في تلك الليلة لم يغضب من زوجته ولم يصرخ على أولاده ، بل عامل زوجته وأولاده بحبٍّ . وبعد الانتهاء من الطعام طلب الصياد دوران من زوجته إحضار زجاجات الشراب التي أخذها خلسة من الآغا حيدر . أحضرت الزوجة زجاجات الشراب خائفةً . سكب الصياد دوران الشراب في الكأس منتشياً ، شرب فسعل ، ثمَّ نادى ابنه : تعال إلى هنا يا سليم .

وبعدم رغبة في القدوم أتى ابنه إليه :

« هل سمعت صوت طير الحجل الذي عند فيصل ؟ » هكذا سأله .

ـ نعم ، لقد زقزق هذا المساء أيضاً .

ـ هل يبيعُه ؟

ـ لقد أصريت عليه كثيراً أن يبيعه ، لكنه رفض يا أبي .

ـ إذا كان لا يريد بيعه ، خذه منه بالقوة . هل فهمت ؟

لم تستطع السيدة زينب السكوت عندما سمعت حديثهما ، فقالت : « إنه عار وذنب . هل هو شيء غريب ؟ .

لقد حزن الطفل أياماً على وفاة أخته . هل ابتهاجه مع ذلك الطير شيء غريب ؟ » .

ـ لا تتدخلي وتابعي عملك . هل تعلمين كم سعر هذا الطير ؟ لقد التقيت اليوم بالآغا حيدر . الذي سبق أن أخبرتك عنه . . ذلك الصياد في المدينة .

ـ وماذا به ذلك الصياد ؟

ـ الرجل مهووس بطيور الحجل . يقول : إن مسابقة أجريت في المدينة ، ولم يكن محظوظاً بالفوز ، فخسرها بسبب طائر الأصلع رشد . الآغا حيدر يحتاج طائراً جيِّداً مزقزقاً . فكِّري ! سيعطي عشرة آلاف ليرة مرة واحدة مقابل الطَّير .

خجلت زينب من نفسها كونها زوجةَ رجل مثل هذا . أصلاً وافق والدها بصعوبة أن يزوِّجه إياها . في ذلك الوقت قال والدها : « الأغنياء يا ابنتي لا يعطون أيديهم من الماء الساخن إلى الماء البارد » . قالت لنفسها : كما أنني أعطيت وعداً لوالد دوران . وطلبت أن لا يكون المال الذي يعطيه في القمار من مالنا » .

لو لم يكن لديها أبناء لما تحمَّلت ما يفعله الصياد دوران . عندما فكرت بأبنائها أتى فيصل إلى عقلها وغضبت مما قاله زوجها .

قالت له : « كما تفكِّر في النقود ، فكِّر في فيصل . عارٌ وذنبٌ .

ليس أمراً غريباً ؟ لقد فَقَدَ أخته قبل ثلاثة أشهر ، ومن قبله تعرض والده لإصابة في العمل . لقد حزنت كلُّ القرية لحالهم . ما ستقول القرية عنك إذا سمعت ذلك ؟ كيف ستنظر بوجه جدِّه حمزة وبوجه السيدة أمينة ؟ يبدو أن لعنة الحيوانات التي تأخذها لا تكفي ، بل إنك ستأخذ لعنة من السيدة أمينة أيضاً ؟ » .

ـ لكننا بحاجة لتلك النقود .

ـ متى لم نكن بحاجة . الثلاثة أو الخمسة قروش التي تدفعها في القمار لا تكفي غالباً . إنك تنفق ـ من دون مخافة الله ـ النقود التي أكسبها من العمل تحت الشمس على المشروب . لقد تفشَّى المشروب في قلبك وعينيك . هل تعرف ما هي المحبة ؟ الألم ؟

ـ اسكت ! هذا يكفي . هكذا صرخ الصياد دوران .

ـ لن أسكت . هكذا ردَّت زوجته .

ـ ما زلت تتكلمين أمامي . اللعنة ! اسكت أقول لك .

نهض الصياد وصفع زوجته على وجهها صفعةً قويةً .

لم تتمالك ابنته الكبرى نفسها ، فأسرعت وأمسكت يدَ والدها وتوسلت له باكية : « لا تفعل ذلك يا أبي ! أرجوك » .

أجهشت زوجته بالبكاء ، رأتِ الأطفالَ انزَوَوْا في إحدى زوايا الغرفة يبكون هم أيضاً بلا حول ولا قوَّة .

أما الصياد دوران فأخذ ابنه سليماً من البيت وخرجا . وفي الليلة المظلمة تلك ، حيث كان نباح الكلاب يأتي من البعيد شرح الصياد لابنه ما يريده أن يفعل .

* * *

القسم الرابع

استيقظ حمزة شاويش على صوت أذان الصبح قائلاً : « بسم الله » ، ثمَّ نهض من سريره وخرج كي يتوضأ .

بينما كان يفرد أكمام قميصه في طريق دخوله إلى الغرفة لم يسمع سوى صوته يقرأ ذلك الدعاء الذي يقرؤه دائماً بعد إتمامه الوضوء . لم ير القفص الذي كان موجوداً أمام نافذة الغرفة . انفعل قائلاً لنفسه : « خيرٌ إن شاء الله » .

انشغل باله ففتح نوافذ الغرفة ، ونظر يميناً وشمالاً . لكنه لم يرَ القفص قطُّ . مشى ثانية باتجاه النافذة . وعندما رأى نصف الزجاج مفتوحاً قال بعجلة : « آه ! لقد سرقوا طيرَ فيصل ، كيف حدث ذلك ولم أعلم ؟ يا ربُّ سيحزن الصبي كثيراً » .

وليعرف كيف تمكَّنوا من سرقة الطير ، خرج بسرعة باتجاه الحديقة . « لقد تسلَّقوا إلى النافذة بواسطة السلم » ، هكذا قال لنفسه . تمعَّن السلَّم وطبعات أقدامهم على التربة بشدة ، فرأى في الحديقة بعض آثار الأقدام فوق السَّماد الموجود أسفل الحائط .

تمعَّن الجدُّ بتلك الآثار . كانت تلك آثار أقدام طفل . لم يشأ حمزة شاويش أن يخبر حفيده بالأمر بسرعة ، وانتظر ريثما يستيقظ فيصل .

أسند حمزة شاويش ظهره على شجرة التوت الموجودة في فناء الحديقة وبدأ يفكِّر .

أتى فيصل راكضاً لعنده . عانق الجدُّ حفيده وقبَّله على خدِّه الرَّطب قائلاً : عندما تغسل وجهك تبدو أكثر جمالاً .

ـ هل تعرف مَنْ رأيت الليلة في المنام يا جدِّي ؟

ـ مَنْ رأيت ؟

ـ رأيت أخي يوسف : لقد صعدنا سوياً إلى المئذنة . وفي الوقت الذي كنا سنطيِّر فيه طيرَ الحجل بدأ أحدهم بهزِّ المئذنة ، كدنا نقع للأسفل . هل تُهَزُّ المئذنة ؟ لا تُهَزُّ ، أليس كذلك يا جدِّي ؟

ـ بالطبع يا بُنَيَّ . هل يعقل أن تُهَزُّ المئذنة ؟ إنه مجرَّد منام .

كيف سيشرح حمزة شاويش لحفيده أمر سرقة طيره . لم يستطع لسانه قطُّ أن ينطق ذلك . كان يبتلع ريقه أكثر من مرة .

قال لنفسه : « ترى كيف سيعلم ؟ الأفضل أن أشرح له ما حدث شيئاً فشيئاً » .

ثم قال لفيصل : « فيصل هل تحزن عندما يطِير طائر الحجل من على المئذنة ؟ » .

ـ بالطبع أحزن . فراق هجران سيكون صعباً جداً . أما لقاؤها بأمها سيكون أجمل . طيور الحجل تعرف بعضها بعضاً من زقزقتها . كذلك ستعرف هجران أمها من زقزقتها في الجبال . أليس كذلك يا جدِّي ؟ هكذا قال لي أخي يوسف » .

ـ قبل أن يأتي يوسف أخوك يا بُنيَّ طيَّروا هجرانَ لقد سرقوها .

ـ ماذا ؟ طيَّروها ؟ سرقوها ؟ متى ؟ كيف سرقوها ؟ مَنْ سرق هجرانَ ؟

ـ سرقوها ليلاً يا بُنيَّ . اهدأ ولا تحزن . سنجدها بالتأكيد .

قال فيصل مجهشاً بالبكاء : « لا يمكن » .

حزنت السيدة أمينة أيضاً لدى سماعها ذلك ، فقالت محاولة مواساة فيصل : « لا تحزن يا بُنيَّ . بالتأكيد سنجد هجرانَ » .

يوماً بعد يوم أُتلف فيصل بألم فقدان طيره . لم يتركوا أحداً في القرية دون أن يسألوه . أقسم الجميع أنهم لم يروه . وفي أحد الأيام قال فيصل لأمه : « لقد عرفت من خطف طيري » .

ـ من خطفه يا بُنيَّ ؟

ـ من سيكون غير سليم ابن الصياد دوران .

ـ سليم ؟

ـ أجل . هو من سرق هجرانَ .

ـ من أين عرفت أن سليماً هو الذي سرقه ؟

ـ لقد أتى إلى بيتنا في اليوم الماضي ، وطلب منِّي أن أبيع هجرانَ لأبيه .

ـ ماذا !

ـ أجل يا أمي . أعرف أنه هو الذي سرق الطير .

ـ ولكن لم يره أحدٌ يسرق الطير يا بُنيَّ .

ـ حتَّى وَلَوْ يا أمي ، فهو الذي سرق الطير . هو الذي سرقه .

أخبرت السيدة أمينة جد فيصل بما أخبرها به ، فقال الجد : « لست متأكداً يا ابنتي . كيف لنا أن نتَّهم دون أن نرى ؟

ـ برأيي إنه يمكن أن يفعل ذلك يا أبي .

ـ اصبري يا ابنتي . دعيني أفتش عن ذلك الصبي يا ابنتي .

لم يظهر سليم ابن الصياد دوران منذ أيام في القرية . سأل وفتش حمزة شاويش عنه . كان الصياد دوران يقول لمن يسأل عن سليم : « إنه يقيم في المدينة عند خاله » .

كان شك حمزة شاويش يزيد يوماً بعد الآخر .

ذات صباح ، حيث كان المعلم خليل متوجِّهاً إلى المدينة قال له : « خليل يا بُنيَّ سأتعبك في أمرٍ ما » .

ـ تفضَّل يا جدُّ حمزة .

كما تعرف إن طير فيصل سرق . وأنا أشك بسليم ابن الصياد دوران . فلنبقِ هذا الأمر سراً بيننا . وكلما سألت والده ، قال لي : إنَّ سليماً في المدينة عند خاله . أريد أن أتعبك بأن تعرف مَنْ خاله إذا كان سليم في المدينة أم لا ؟

ـ حاضرٌ . على الرَّحب والسَّعة يا جدُّ حمزة . بالتأكيد سأعرف . لا تقلق .

انتظر حمزة شاويش بفارغ الصبر عودة باص القرية من المدينة ، وعندما عاد المعلم خليل أخبر الجد حمزة أنَّ سليماً ليس في المدينة .

قال الجد حمزة لأمينة : « أنت محقة على الأغلب يا أمينة . الصبيُّ ليس في المدينة . أبوه يكذب لا محالة . فإذا كان الصياد دوران ليس هو وراء ذلك ، فلماذا يخفي ابنه ؟ » .

ـ فعلاً يا أبي . لا أحد في القرية غير ابنه يفعل شيء كهذا . كل شيء متوقع من الصياد دوران . لا يوجد مخافة لله في قلبه .

طلب المختار شكري استدعاء الصياد دوران إلى مضافة القرية

ذات مساء . فأرسل الحارس لاستدعائه ، لكنه لم يجده في بيته .

قالوا له : إنه موجود في المقهى ؛ لذلك ذهب الحارس عمر إلى المقهى ، وقال له : « المختار يريدك » .

ـ ماذا يريد منِّي المختار ؟

ـ لا أعرف ستعلم عندما تأتي .

ومن دون رغبة ، نهض الصياد دوران عن طاولة القمار قائلاً لأصدقائه : « سأعود حالاً . لا تذهبوا إلى مكان آخر » .

خرج الحارس عمر قبله من المقهى . ووصل مضافةَ القرية ، فألقى السلام . كان المختار وشيوخ القرية ، الحاج محمد أفندي وحمزة شاويش موجودين في الداخل .

قال المختار للصياد دوران : اجلسْ هنا بسرعة .

جلس الصياد إلى الطاولة المصنوعة من خشب الأرز .

ـ لقد استدعيتني يا مختار .

ـ نعم سأسألك شيئاً يا سيد دوران .

ـ خيرٌ ؟

ـ هل هو خيرٌ أم شرٌّ لا أعلم . أما ما أريد أن أعرفه فهو

بخصوص طير حفيد الجدِّ حمزة . المفروض أنك تعلم أنه فُقِدَ منذ فترة .

ـ نعم سمعت بذلك .

ـ حسنٌ ، هل رأيت ذلك الطير ؟

ـ لا ، لم أره .

ـ هل أنت متأكِّد يا سيد دوران ؟

ـ ماذا تقصد ؟ هل أنا الذي سرق طائر الحجل ؟

ـ لا يا عزيزي . هل قال أحدٌ أنك سرقته ؟

ـ كيف لي أن أعرف إذن ؟ كأنكم تتَّهمونني بسرقته .

ـ أنت صياد ، لذلك أسألك يا سيد دوران . أنتم الصيادون تهتمون لطيور الحجل . قد تكون رأيت الطائر عند أحد أصدقائك .

ـ لا ، لم أره عند أحدٍ .

ـ وهل الأبناء لم يروه أيضاً ؟

ـ لو رأوه لقالوا لي .

تدخَّل الحاج محمد في الحوار ، وسأل الصياد دوران أكثرَ سؤال يغضبه : وهل سليم أيضاً لم يره ؟

أجاب الصياد دوران عن السؤال بغضب وحدَّة ، ومن دون خجل

قال محمرّاً وجهُه : « ومن أين له أن يراه ؟ هو يمكث مع خاله في المدينة » .

أمسك حمزة شاويش نفسه بصعوبة عن الكلام ، وحدَّث نفسه قائلاً : « كلُّ ما يقوله هذا الرجل كذب . آه ، لو كنت شاباً لكنت أعلم ما يجب أن أفعل بك » .

قال المختار : « الصبيُّ ليس في المدينة » .

ـ من قال ذلك ؟ هكذا سأل الصياد دوران بسرعة .

ـ السيد خليل قال ذلك . هذا ما قاله له صهرك : « لم يأت الصبيُّ إلينا ، إذا أردت اذهب واسأله » .

ـ نعم كان سيذهب ، ثمَّ لم يذهب ، عدل عن ذلك في آخر لحظة . تعرفون كيف يتصرف الصبيان .

قال المختار : « قل الحقيقة يا سيد دوران . هل رأيت طائر الحجل أم لم تره ؟ » .

ـ قلت : إنني لم أره يا مختار . هل أكذب ؟

ـ حسنٌ . هل تحلف يميناً على ذلك ؟

ـ ماذا تقول ! يمين ماذا ؟ أنا لم أر الطائر ولا غيره .

ـ حسنٌ ، حسنٌ ، فهمنا .

خرج الصياد دوران بهدوء من مضافة القرية . نظر المختار وحمزة شاويش إلى بعضهما بعضاً ، ثمَّ قال المختار : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، هل رأيت يا جدُّ حمزة ؟ الرجل ينكر إنكاراً تاماً . لم أر هكذا . إذا سألتني : من سرق الطَّير ، سأقول لك : إن لهذا اللص يداً في الموضوع . فلننتظر . لا تقلق . لا دخان من غير نار » .

وفي صباح اليوم التالي أوقف سليمٌ ابن الصياد دوران فيصلَ في الطريق ، وقال له : « كيف تقولون عن أبي : إنه لص ! » .

وبدأ بالاستقواء على فيصل ومضايقته ، وبعد تراشق الكلام ، لَكَمَ سليم فيصل لكمةً بعنف ، ثمَّ بدأ الشجار بينهما .

أبعدت النسوة اللواتي كُنَّ يملأن الماء من النبع سليماً وفيصلَ عن بعضهما بعضاً بصعوبة . أصبح خدُّ فيصل ينزف دماً . ذهب الأقارب والجيران وعائلة أحمد لزيارة فيصل ، وقالوا له : حمداً لله على السلامة ، لقد حزن الجميع لما حدث .

قالت أم أحمد : « مذنبون وأقوياء في آنٍ . هل يوجد في قريتنا من لم يشتك من أولاد الصياد دوران ؟ لقد رأيت ذلك الصبيَّ الشقيَّ مرات كثيرة وهو يسرق عناقيد العنب من الكروم ! » .

قال الجدُّ حمزة شاويش : « وكيف سيكون ؟ إنه ولد ضال ،

فإما أن يذهب إلى الكرم أو إلى البستان . ذلك الصياد لا يعرف شيئاً عن أولاده » .

قالت السيدة أمينة : لقد استفردوا بفيصل ، لم يكن أحدٌ معه . أنا أعرف ماذا سيجري لأولئك اللصوص . هل يظنون أن ما فعلوه بفيصل سيمرُّ هكذا يا أحمد ؟

ـ لا يمرُّ يا خالة أمينة ، أنا لفيصل . . . . .

وقبل إتمامه الجملة دمعت عينا أحمد .

قال فيصل : « هو هاجمني . أنا لم أكن أريد المشاجرة » .

في تلك الليلة لم يسكت سلطان عن الزقزقة . كأن فراق هجران له وألم فيصل يجعلانه لا يسكت . كان يرفرف في القفص حتَّى الصباح . وفي صمت الليل كان ينتظر زقزقة هجران ، لكن لم يبادل صوته أيَّ صوت من هجران .

سكتت الصراصير والحشرات الأخرى حتَّى الصباح .

ولم تنم عيون السيدة أمينة والجدِّ حمزة حتَّى منتصف الليل .

نضج العنب في قريتنا ، وبدأ أهل القرية بقطف المحاصيل في أحدٍ حارٍّ من أيام تموز شديدة الحرارة . ذهب أحمد وفيصل وعائلاتهما إلى الحقول المحاذية لسواحل كزليرماك . جمعوا المشمش في سلات حتَّى تعبوا وسال عرقهم .

قال أحمد : « فلنذهب ونستحم في النهر » .

ـ ليس لي رغبة في ذلك ، كما أنَّ خدِّي مجروح . اذهب واستحم أنت .

ـ هل أستحمُّ وحدي ؟

ـ إذا لم ترش الماء على رأسك ، فلن تتحسن ، كما أنك سترتاح عند الاستحمام .

وبسرعة وضع الاثنان ملابسهما جانباً ، وكان أول من وضع جسده في الماء أحمد . كان ذلك في أحد أشهر الصيف حيث انخفضت مياه كزليرماك . قال أحمد لفيصل : « هيا ! هيا ! رش الماء عليك . إنه دافئ وجميل » .

غاص فيصل في النهر وسبح الاثنان كثيراً ، ثمَّ جلسا تحت الشمس على العشب الموجود فوق الساحل المقابل ، فقال أحمد : هل يزقزق سلطان في الليل ؟

ـ نعم ، يزقزق كثيراً . لم يسكت أبداً هذه الليلة . بقي يرفرف حتَّى الصباح في القفص . هل أنت متأكد من أن ابن الصياد دوران هو من سرق هجران يا فيصل ؟

ـ لم أَرَ بعيني ، لكن لا يوجد غيره يسرق طَيْرِي .

ـ أنا أيضاً لديَّ إحساس بذلك . الصياد دوران لا يذهب كثيراً للصيد هذه الأيام .

ـ ماذا لو أخذوا هجران في يومٍ ما إلى الصيد . أنا سأعرف هجران من صوت زقزقتها . فلنرَ ماذا سيفعلون . آه ، لو يأتي أخي يوسف .

ـ لا تحزن يا فيصل . عندما يأتي أخي يوسف سيجد هجران .

ـ لو أتى لوجدها ، لكنه لم يأت .

ـ إنني أحترق من الشمس ، إذا أردت نعود إلى الماء .

ـ نعم ، فلنعدْ .

ذهب الاثنان إلى النهر وألقيا بنفسيهما في الماء . كان تيار الماء المعاكس للساحل يشتدُّ ويقوى . خرج أحمد قبل فيصل باتجاه الساحل وبسرعة ارتديا ملابسهما .

كانت الشمس تقترب باتجاه قمة جبل سيفري . امتدت ظلال الأشجار ، وبدأت أسراب الطيور بالعودة إلى القرية . وعاد أحمد وفيصل من الكرم يحملان سلات ممتلئة بالمشمش ، أغلقاها بأوراق العنب التي قطفوها . خرج الاثنان إلى الطريق المحاذي للحقل الموجود في أعلى الكرم ، واستراحا قليلاً .

قال فيصل : « صعود التلة شاق . لقد تعبنا كثيراً » .

أجابه أحمد : « نعم ؛ لأننا نحمل سلالاً أصبح تسلق التلة أكثر صعوبة » .

ـ انظر يا فيصل ! أليس ذلك الصبيُّ الذي يركب على الحمار هو سليم » .

ـ ماذا ؟ سليم ؟ أين هو ؟

ـ انظر إنه يقترب باتجاه حقل الشعير .

ـ لا يُميَّز من الخلف ، لكن قد يكون هو . انتظر ! دعني أرى ثانية . نعم ! إنه سليم ، لقد عرفته من قميصه .

ـ هيا أسرع ، فلنمسكْ به عند وصوله جدول الماء .

ـ لكن معنا سلات ، لن نتمكن من اللَّحاق به .

ـ أنا سألحق به . أحضر أنت السَّلات . سأريه كيف يكون الشجار .

بدأ أحمد بالركض نحوه . رأى سليمٌ أحمدَ يركض نحوه ، فضرب الحمار بالصولجان كي يسرع .

صرخ أحمد من ورائه : « قف ! لا تهرب ! » .

عندما رأى سليمٌ أن أحمدَ اقترب منه قفز عن الحمار ، وبدأ بالركض . ركض الاثنان باتجاه القرية فسبق سليمٌ أحمدَ . ودون أن

يمسك أحمد بسليم تمكَّن سليم من دخول القرية .

استاء أحمد من ذلك ، فجلس بمحاذاة الطريق عند مدخل القرية منتظراً فيصلَ الذي لحقه .

سال منه العرق كثيراً . لم يتأخر فيصل كثيراً حتَّى وصل .

قال أحمد منزعجاً : لم أمسك به . لقد كان يركض بسرعة كبيرة . لو أمسكت به لَما تركته لِما فعله بك ، لكن لا تقلق سيقع في أيدينا مرة أخرى » .

ـ ما شعر به من خوف أسوأ من الضرب بالنسبة له . هل رأيت كيف هرب من الخوف ! الآن سيقول لوالده عن مطاردتنا له . فلنذهب إلى البيت من الطريق العُلوي . وليحدث ما يحدث .

وعندما كان أذان المغرب يُردَّد ، توجَّه كلٌّ من فيصل وأحمد إلى القرية من الطريق العلوي .

قال أحمد : « بعد أن نضع سلاتنا في البيت نأتي إليكم » .

أجاب فيصل : « حسنٌ ، وبجانب ذلك أرى سلطان » .

ـ عندما ذكرت سلطان شُغل بالي ، ترى هل نسيت أمي أن تضع له العلف ؟ إن شاء الله لم تنس .

ذهب الاثنان بسلاتهما الممتلئة بالمشمش إلى بيت أحمد ، فوضعا السلات أمام باب المطبخ وبسرعة ذهبا إلى سلطان . لم يكن

سوى سلطان في الغرفة . جلس أحمد وفيصل أمام القفص ، ثمَّ قال أحمد : « يبدو أن أمي وضعت له العلف . انظر لم يأكل شيئاً من الحبوب » .

رَبَتَ فيصل على جناحي سلطان ، ثمَّ قال : « كم يشبه هجران ! انظر إلى خطوط جناحيه إنها ذاتها في الاثنين » .

كان سلطان يمد رأسه من فواصل القفص المصنوع من شرائط الصفصاف فيسحبه ، كأنه ابتهج لرؤية أحمد وفيصل . قبَّل أصابعهما مرات عدَّة . أراد الكلام ورفرف في القفص مرات كثيرة . قبَّل أحمد وفيصل رأس سلطان بحبٍّ . كان الاثنان قد قطفا له أوراق الخس من الأراضي المحاذية لشاطئ الكروم وقطَّعوها إرباً إرباً وألقيا بها في القفص .

قال أحمد : من المحتمل أن أمي موجودة في الحظيرة .

ردَّ فيصل : « أنا أيضاً عليَّ أن أعود للبيت » .

ـ هل ستذهب دون أن ترى أمي ؟

ـ حسنٌ ، نمرُّ بالحظيرة في طريقنا .

ـ هيا بنا إلى الحظيرة .

ذهب الاثنان إلى الحظيرة . كانت أم أحمد هناك تحلب البقرة . قال فيصل : اللهُ يُعطيكِ العافية يا خالة .

ولدى سماعها صوت فيصل أدركت أم أحمد أنهما وصلا .

ـ أهلاً وسهلاً يا فيصل . أخيراً أتيتما . لقد انشغل بالي عليكما . لماذا تأخرتما إلى هذا الوقت ؟

أجاب أحمد : « لقد سبحنا في النهر يا أمي » .

ـ وهل يسبح في النهر إلى هذا الوقت يا بُنيَّ ؟ لقد خفت كثيراً . لم يبق شيء لم يوسوس به الشيطان إلى عقلي .

قال فيصل : « لقد جمعنا المشمش أيضاً » .

ـ بالطبع ، لو سمعتما الخبر لما بقيتما تجمعان المشمش لهذا الوقت .

ـ أيُّ خبر يا خالة ؟

ـ ماذا سيكون ! لقد عاد الأستاذ يوسف .

قال الاثنان معاً مسرورين : « ماذا ؟ حقاً ؟ هل عاد أخي يوسف » .

ـ نعم عاد . لقد أَذَّن لصلاة العصر . ألم تسمعاه ؟

ـ كلا ، لم نسمع .

قال فيصل : « لقد أتى أخي يوسف . عليَّ الذهاب فوراً » .

ـ انتظر يا فيصل . أوشكت على الانتهاء من عملي في الحظيرة .

لقد أخذت من أمك مقصاً . خذه معك لها في عودتك . قد تكون في حاجة إليه .

ـ حسنٌ . سأنتظر يا خالة .

لم يتمكَّن فيصل من الوقوف في مكانه من شدة الابتهاج . وعندما أخذ المقص سرعان ما ذهب هو وأحمد إلى بيت يوسف .

* * *

القسم الخامس

فتح يوسف الباب لفيصل وأحمد ضاحكاً فأدخلهما إلى الداخل . دخل فيصل وأحمد مسرورين .

قال الاثنان معاً : أهلاً وسهلاً يا أخي .

عانق يوسف فيصل وأحمد قائلاً ببهجة : « أهلاً بكما يا أصدقاء الروح ، لقد شغلتما بالي تفكيراً . هل تعلمان ؟ لقد أُجِّلت الامتحانات ، وكانت في مكان بعيد في إسطنبول . كان الذهاب إليه والمجيء منه صعباً جداً . عندما كنت على وشك أن آتي ، قلت لنفسي : فلأنتظر انتهاء الامتحانات . لذلك لم أستطع القدوم الأسبوع الماضي . حدثاني كيف حالكما ؟ ماذا حدث منذ آخر لقاء جمعنا ؟ هيا أخبروني بسرعة . بالمناسبة هل بدأ هجران وسلطان بالزقزقة ؟ » .

قال أحمد بسرور : نعم لقد زقزقا .

ـ هل زقزقت هجران أيضاً يا فيصل ؟

ـ نعم يا أخي ، لقد زقزقت لكن . . .

دمعتْ عينا فيصل قليلاً ، فسأل يوسف : لكن ماذا ؟

أجاب أحمد : « لقد سرقوا طير فيصل يا أخي يوسف » .

ـ ماذا ! سرقوه ؟

ـ نعم سرقوه .

ـ حسنٌ ، من سرقه ؟

ـ لا نعرف من سرقه ، لكننا نشك في ابن الصياد دوران .

ـ متى سرقوه ؟

ـ بحلول اليوم يكون الخامس .

ـ حسنٌ ، كيف حدث ذلك ؟

قال فيصل : « بينما كانت هجران موجودة في غرفة جدِّي ، صعدوا ليلاً بالسلَّم وسرقوها . كان زجاج النافذة مفتوحاً ، لقد أخذوا القفص بهدوء . عندما كان جدِّي يصلِّي صلاة الصبح انتبه لكلِّ ذلك » .

ـ لماذا تشكَّان في ابن الصياد دوران ؟

أجاب أحمد : « في اليوم الذي زقزقت هجران فيه امتلأ بيتنا بكل أطفال القرية ، لكن ابن الصياد لم يأت . قال لي قبلها « بعِ الطير لأبي » قلت له : إنني لا أبيع هجران . أصر عليَّ كثيراً .

وعندما فهم أنني لن أبيعه إياها انسحب وغادر » .

ـ هكذا إذن . حسنٌ ، هل سألتم أمه وأباه ؟

ـ لقد تحدَّث جدِّي مع والده في مضافة القرية . « لم أرَ طير الحجل » . هكذا قال الصياد دوران .

ـ هل تعلم يا أخي يوسف ماذا جرى اليوم الماضي ؟

ـ ماذا جرى يا عزيزي أحمد ؟ أخبرنا .

ـ لقد ضرب ابن الصياد دوران فيصلَ لكمةً على رأسه قائلاً : « كيف تقولون عن أبي : إنه لصٌّ ؟ » حتَّى أن خدَّ فيصل جُرح في هذا المكان المغطَّى بالشريط .

تمعَّن يوسف بالجرح الذي في خدِّ فيصل . استاء يوسف بشكل واضح من ذلك . نظف يوسف ثانيةً مكان الجرح بماء الأكسجين بشكل جيد ، ثمَّ رش البودرة على الجرح فأغلقه بالشريط . وقال بصوت حزين : « كاد الأذى يلامس عينك ، لقد حماك الله » .

على أية حال حمداً لله على السلامة . الشجار لا يوصل إلى الحل ، بل إن الكلام العذب يخرج الأفعى من جحرها . أنا سوف أحل الأمر . لا تقلقا . إذا ما زالت هجران سليمة فسنجدها . لا تقلقا ، غداً بالتأكيد سنعرف » .

وفي منتصف صباح اليوم التالي شاهد يوسف من النافذة الصياد

دوران ذاهباً إلى المقهى فأغلق الباب وخرج فوراً خلفه ينادي : سيد دوران ! سيد دوران !

أجاب الصياد : تفضل يا أستاذ . هل ناديت عليَّ ؟

ـ أريد التحدث إليك دقيقتين يا سيد دوران .

ـ حسنٌ يا أستاذ .

ـ أنا لست معتاداً كثيراً على المقهى ، إذا أردت تفضل عندي . نشرب الشاي معاً .

دخل الاثنان بيت يوسف . وقبل أن يجلس يوسف وضع ماء الشاي على الموقد . بدأ الصياد بالكلام : خيرٌ يا أستاذ ؟

ـ خيرٌ ، سأتحدث عن طير الحجل الذي يخصُّ فيصل حفيد الجدِّ حمزة .

ـ دعك من ذلك يا أستاذ ، لقد شعرت بالاكتئاب اليوم بسبب هذا الطائر .

ـ لماذا ؟

ـ مساء أمس قطع أحمد وفيصل طريق ابني عندما كان عائداً من الكرم . وبصعوبة استطاع الصبيُّ الوصول إلى البيت .

ـ حقاً ! لم أعلم بذلك . هل حدث هذا مساء أمس ؟

ـ نعم ، مساء أمس .

ـ لكن ابنك جرح وجه فيصل .

ـ إنهم أطفال يا أستاذ . اليوم يتشاجرون ، وغداً يتصالحون .

ـ أنا سأجعلهم يتصالحون . لا تشغل بالك بأمر الأطفال . برأيك ، هل سرق طير فيصل يا سيد دوران ؟

ـ من أين لي أن أعلم يا أستاذ ؟ ربما سُرق أو هربَ .

تبسَّم يوسف ، بينما كان يملأ كوب الشاي للصياد دوران : « وهل يعقل أن يهرب مع قفصه يا سيد دوران ؟ » .

ـ هذا يعني أنه قد سُرق .

ـ نعم سُرق ، لكن يا تُرى من الذي سرقه ؟

ـ من أين لي أن أعلم يا أستاذ ؟

ـ لا تغضب يا سيد دوران . أنا أسألك ؛ لأنك تعرف بهذه المواضيع .

وضع يوسف أكواب الشاي الفارغة فوق المائدة . كان الصياد دوران في حالة من الغضب ؛ إذ أخرج سيجاره وبعد أن أشعله سحب الدخان إلى الداخل . أراد يوسف تغيير الموضوع ، فقال : « سيد دوران ، أنت تعرف أن أخت فيصل قد ماتت . وأنَّ أباه قد

تعرض لإصابة عمل في ألمانيا . وبعد هذا كله كان هذا الطائر العزاء الوحيد للطفل المسكين . فعندما فَقَدَ الطَّير عاد للحزن مجدداً . أخشى أن يصاب بالمرض مجدداً بسبب حزنه ؛ لذلك يتبادر إلى ذهني شيءٌ ما » .

ـ مثل ماذا يا أستاذ ؟

ـ إنَّ طيور الحجل تشبه بعضها بعضاً . من أين لفيصل أن يميِّز إذا كان الطير طيره أم لا ؟ هل يوجد طير حجل في بيتك ؟

ـ نعم يوجد .

ـ إذا قبلت أنا أشتريه . وفي إحدى الليالي أبقي الباب مفتوحاً ،ونقول : إنه عاد . لا أعتقد أنه سيفهم . ففي زوال حزن الطفل ثوابٌ .

بدأ الصياد بالتفكير ، وسحب من سيجارته بعض الأنفاس ، ثمَّ قال متردِّداً : لكن يا أستاذ ، الطائر الموجود في بيتي ذو قيمة كبيرة ، كم ستدفع به لا أعرف ، لم أكن أريد بيعه ، لكن إذا كان في ذلك ثوابٌ كما تقول ، فسأبيعه إذا دفعت قيمته حقاً .

ـ سأدفع ثمنه . فلنره بسرعة .

ـ حسنٌ ، يا أستاذ هيا بنا .

خرج الصياد دوران من البيت . ويوسف معه ، وعند اقترابهما

من بيته كان فضول يوسف يزداد شيئاً فشيئاً . ماذا عساه فاعلاً إذا كان الطير الذي سيريه إياه الصياد دوران هو هجران ؟ في الواقع لم يضع احتمالاً لذلك . قال محدِّثاً نفسه : « رجلٌ وصل لهذا العمر لا يعقل أن يفعل شيئاً كهذا » .

وبقي الأستاذ يسأل نفسه تلك الأسئلة ، إلى أن دخل بيت الصياد . وسرعان ما عرف هجران عندما رأها .

ـ إنها هجران . هكذا قال لنفسه .

لم يعرف يوسف ماذا يجب أن يقول من شدة التوتر . بدأت هجران ترفرف داخل القفص عندما رأت يوسف بدت كأنها تنظر إليه بعيون تتوسل ، وتقول له : « خلصني من هنا » .

قال الصياد دوران : « ها هو الطائر الذي حدثتك عنه يا أستاذ » .

لم يتحمل يوسف ما قاله الصياد دوران ، استرجع في خياله تلك الأيام التي قضاها مع هجران وفيصل معاً . يوم خرجت من البيضة كانت المحبة تحيط بها . لم يبعد يوسف عينيه عن هجران . أما الصياد دوران فظن أن الأستاذ يوسف أحب الطير .

قال الصياد دوران : كما حدثتك يا أستاذ . أليس كذلك ؟

ـ نعم . نعم ، كما حدثتني عنه . قال بتوتر .

ـ إنه ذو قيمة كبيرة عندي . لقد اصطدته عندما كان مع صغيره في المحاصيل .

ـ حقاً ؟

لم يعتقد يوسف أبداً أن الصياد دوران كاذب وعديم الضمير والمشاعر إلى هذا الحدِّ . كيف رضي أن يفعل ذلك بفيصل من أجل النقود ؟ كيف استطاع أن يتركه بحالة من الحزن أياماً طويلة ؟ كيف استطاع أن يُحزن ذلك الصبي الذي تجرع الألم كثيراً ؟ كيف كان ضميره مرتاحاً لذلك ؟

بدأ الصياد دوران ينظر بشكل مختلف إلى عينيه ، لم يكن يعلم بالعاصفة التي هبت داخل يوسف .

قال يوسف : ماذا تريد مقابل طير الحجل ؟

وبعد عدد من الثواني ، قال الصياد دوران : والله يا أستاذ إنَّ سعره كثير ، لكن من أجلكم سآخذ اثني عشر ألف ليرة فقط .

ـ ماذا ؟ ؟ اثنا عشر ألفاً ؟

ـ نعم يا أستاذ ، اثنا عشر ألفاً .

ـ أليس كثيراً ؟

ـ ليس كثيراً يا أستاذ . قد تعدُّون السعر باهظاً بالنسبة لكم ؛ لأنكم لا تفهمون بطيور الحجل ؟

ـ آخر سعر كم تقول ؟ كي لا يحزن الطفل .

ـ آخر سعر لكم يا أستاذ عشرة آلاف ليرة . لا أستطيع تنزيل السعر أكثر .

خيَّم صمتٌ لبرهة على يوسف .

وبعد قليل قال : « حسنٌ ، اتفقنا . آخذ الطير وسأعطيك النقود أول الشهر ، أيجوز ذلك ؟ » .

ـ لا تسئ فهمي يا أستاذ . ليس لأنني لا أثق بكم ، ولكن لأنني أحب هذا الطير كثيراً . إذا أردت دعه حتَّى أول الشهر عندها تعطيني النقود وأعطيك إياه .

قال يوسف : « حسنٌ . في أول الشهر عند توفُّر النقود سآخذه منك » .

بدأ يوسف ينظر إلى هجران داخل القفص مرة أخرى . رَبَتَ على ريشاتها ومنقارها بعد أن أدخل يده من خلال فواصل القفص . ظلت هجران ترفرف في القفص كأنها تقول له : « خلصني منهم يا أخي يوسف . خلصني » .

وفي أول يوم من شهر أيلول توجَّه يوسف إلى المدينة ليتسلَّم راتبه . وعندما تسلَّم الراتب وضع العشرة آلاف التي سيعطيها للصياد في جيبه الأخرى . لم يعلم أن الوقت تأخر في القرية .

تحرك باص القرية من المدينة بعد أذان العصر . كان يوسف لا يتوقف عن التفكير في هجران ، وهو في الباص متوجِّهاً إلى القرية . سيأخذها الليلة من الصياد دوران ويعطيها غداً إلى فيصل . من يعلم كم سيبتهج فيصل لذلك . كانت رؤية فيصل مبتهجاً أسمى معاني السعادة بالنسبة ليوسف .

وعندما نزل من الباص سرعان ما ذهب باتجاه بيت الصياد دوران . وقف أمام البيت يفكِّر في إعطاء الصياد النقود التي طلبها ، ويأخذ منه هجران ويخلِّصها منه ، ثمَّ نادى : « سيد دوران ! » .

خرجت زوجة الصياد نحو الباب فقالت : تفضل يا أستاذ .

ردَّ يوسف مخفضاً رأسه من الخجل : كنت أريد أن أقابل الصياد دوران يا عمَّة . أليس موجوداً في البيت ؟

ـ لقد ذهب إلى الحظيرة . إذا انتظرتم قليلاً سأناديه بسرعة .

بقي يوسف ينتظر عند الباب . حضر الصياد دون أن تأخير .

وقال خجلانَ : « تفضل يا أستاذ » .

ـ لقد أتيت بخصوص الأمر الذي تحدثنا به في الأمس .

ـ آه ، ذلك الأمر . فلنصعد إلى الأعلى معاً ، ونتكلم في الغرفة .

صعد الاثنان معاً إلى الغرفة .

ـ « إنه يخفي أمر بيع هجران الذي اتفقنا عليه عن زوجته » .
هكذا حدث يوسف نفسه .

وعندما دخل الاثنان إلى الغرفة نظر يوسف إلى الزاوية التي كانت فيها هجران . فلم يجدها عندها سأل بسرعة : هل وضعتم الطير في مكان آخر ؟

تظاهر الصياد دوران بأنه لم يسمع سؤال يوسف . فأخرج سيجارة محاولاً إشعالها ، لم يسمع وقتها سوى صوته قائلاً : « يا أستاذ ، لقد بعت الطير » .

ـ لم يصدق يوسف ما سمع .

قال بحدَّة : « ماذا ؟ هل بعته ؟ » .

ـ نعم يا أستاذ لقد بعته .

كانت يدا يوسف ترتجفان من الغضب . أيامَ كان يشعر بالحماس في قلبه لشراء هجران ، رسم ذلك في خياله . لم يستطع أن يقول له : « أنت سرقت هجران » ؛ لأنه لم يره بعينه مع أنه يعلم أنه هو الذي سرقها .

أراد أن يعطيه النقود من أجل أن يشتريه ، ويعيد لفيصل الطائر الذي كبَّره بنفسه ، لكن هذا الخيال أصبح سدىً .

فكَّر الأستاذ يوسف كم كان الصياد شخصاً دنيئاً ، فقال غاضباً : « إننا اتفقنا أساساً » .

ـ نعم اتفقنا ، لكن أنت لم تعد ، ولم تسأل مرة أخرى . ظننتك عدلت عن شرائه .

ـ ألم نقرر أن يتمَّ ذلك أول الشهر ؟

ـ قررنا ، ولكن . . .

ـ ولكن ماذا يا سيد دوران ؟ اليوم هو أول الشهر . أنا أحضرت لك النقود التي طلبتها ، وأنت تقول : إنك بعت الطير . أليس عيباً ما فعلته ؟ الإنسان يُربط من كلمته ، والحيوان من عنقه .

ـ أليس الطير لي ؟ أنا بعته لمَنْ أردت .

ـ من قال : إنه لك ؟

ـ ماذا تقصد هل هو ملكٌ لغيري ؟

ـ بالطبع إنه لغيرك . إنها هجران طير فيصل .حينما رأيتُها عرفتُها .

ـ من أين تعرف أنه طير فيصل . أنت لم تر طيرَ فيصل أبداً .

ـ من أين أعرف ! لقد أطعمت ذلك الطير في بيتي أياماً حتَّى كبر . أنا الذي أعطيته لفيصل .

ـ أتقول : إنني لص إذاً ؟

ـ لم أقل لك : إنك لصٌّ ، لكني أقول : إن ذلك الطير هو طير فيصل . على أية حال لقد ذهبت هجران من بين أيدينا . فلنعرف لمن بعتها ، افعل هذا الخير على الأقل .

ـ لشخص في المدينة يُدعى الآغا حيدر ، إنه صياد ، أنتم لا تعرفونه .

خرج يوسف غضبانَ وحزيناً من بيت الصياد دوران . قال لنفسه في الطريق : « كان يجب أن أقول ذلك في أول يوم . إنَّ فيصل يعيش الآن مع خياله بشكل محزن . كيف كنت سأشرح له كل هذه الأشياء ؟ » .

دخل يوسف إلى المنزل على هذا الحال من التفكير .

توضأ يوسف ، ثمَّ ذهب إلى المسجد لإقامة صلاة المغرب ، شعر أثناء ذهابه إلى المسجد براحة داخله ، ثمَّ قال لنفسه : « من يفعلون السوء لا يبقون ، سيتلقَّون حسابهم في أحد الأيام لِمَا فعلوه . إلهي احمِنا من السوء والشرِّ » .

دخل المسجد يقرأ هذا الدعاء .

وبعد انتهائه من أداء فرض صلاة العشاء أدار وجهه إلى الخلف ، فرأى فيصلَ وأحمدَ في منتصف المسجد . كانت تلك أول مرة

يراهما في المسجد . شعر بسعادة كبيرة لذلك . أتت عينا يوسف بعيني فيصل ، فتبسَّم الاثنان . وقف يوسف بقلب مليء بالسكينة لأداء صلاة السُّنة ، كبَّر فبدأ بالصلاة .

وبعد أداء الصلاة ذهب كلٌّ من فيصل وأحمد إلى بيت الأستاذ يوسف . لم يخبرهما يوسف بما جرى بينه وبين الصياد دوران . أخبرهما أن هناك خبراً سعيداً ، ألا وهو أن هجران موجودة الآن عند شخص يُدعى الآغا حيدر في المدينة . ابتهج فيصل وأحمد لدى سماعهما هذا الخبر .

ولأن الباص لا يذهب يوم الأحد من القرية إلى المدينة قرروا أن يذهبوا يوم الإثنين معاً لشراء هجران من الآغا حيدر . ذهب كلٌّ من أحمد وفيصل إلى بيتها لإخبار عائلاتهما بأنهما وجدا هجران .

مَنْ يعرف كم سُرَّت أم فيصل عندما سمعت أنهم وجدوا هجران .

في اليوم التالي كان الأستاذ يوسف يتوضأ من النافورة ، التي كانت في بهو المسجد من أجل صلاة الظهر فدخل الصياد دوران فناء المسجد غاضباً ، وأمسك يوسف من ذراعه قائلاً : « أستاذ ! أستاذ ! ألا تخجل من القول عني أنني لصٌّ ؟ » .

استغرب يوسف من سبب تعرض الصياد له . وقف على قدميه

منفعلاً ، وقال : أنا لم أقل : إنك لصٌّ . ارفع يدك عن ذراعي .

ـ إذا لم تقل أنت ، من نشر في القرية أنني سرقتُ طيرَ الحجل إذن ؟

ـ من أين لي أن أعرف ذلك . لا يوجد دخان من دون نار .

ـ انتبه لعملك يا أستاذ . ماذا قلت عن طير الصبيِّ ؟ إذا كنت لا تعرف حدَّك أنا أجعلك تعرفه .

ـ هيا ، فلنرَ ، اجعلني أعرف حدِّي .

أسرع أولئك الملتمُّون أمام باب المسجد ، الذين كانوا ينتظرون دخول وقت الصلاة ، نحوَهما وأبعدوا الأستاذ يوسف والصياد دوران عن بعضهما بعضاً .

التصق بكير شاويش بسترة الصياد دوران حتَّى أمسك به ، وقال :

« ما هذا الذي تفعله بنا ؟ يبدو أن ما يفعله أبناؤك لا يكفي لتفعل أنت هذا أيضاً ؟ كم مرَّة أمسكت بك ، وأنت تسرق العنب . ألا يكفي كلُّ هذا حتَّى تأتي الآن وتمسك بأستاذ قريتنا وتفعل هذا . أنا أستطيع أن أعلمك كيف يكون الشجار ، لكننا في فناء المسجد ، وهو مكان مبارك . اليوم تضرب الأستاذ وغداً معلم المدرسة ويوم

آخر المختارَ . هيا امشِ إلى مضافة القرية عند المختار . فلنرَ عقاب إهانتك للأستاذ » .

أمسك باكير شاويش وكوجا عثمان الصياد دوران من ذراعيه وأخذاه إلى المختار .

ولدى سماع المختار ما حدث انزعج كثيراً . وقال : إنه لن يصفح عن الإهانة وعدم الاحترام ، التي تعرَّض لها الأستاذ يوسف المحبوب في القرية . استدعى حارس المضافة ، وطلب منه حبس الصياد في المضافة .

قال المختار مبتعداً عن الصياد : « من دون أن نتوصل إلى طائر الحجل لن تتمكن من الخروج من هنا » .

أرسل المختار مع حارس المضافة خبراً إلى الأستاذ يوسف بأنه يريد منه أن يزوره في بيته .

اعتذر المختار ليوسف عما فعله الصياد دوران معه . لم يرد أن يغضب . وقال له : « لا أحد في القرية يحب الصياد دوران » .

قال يوسف حزيناً : « ما يحزنني أن الرجل مذنبٌ وقويٌّ في آن معاً . لقد سرق الطير وضرب فيصل ، وها هو يقدم على إهانة الغير وعدم احترامهم . هذه وقاحة صارخة . هذا النوع من البشر يجب إيقافه عند حدِّه » .

تابع يوسف قائلاً : « غداً سوف أذهب إلى المدينة . إذا كان الطير الذي باعه إلى الآغا حيدر هو ذاته طير فيصل ، لن أترك هذا الرجل .لقد رأيته بعيني يا مختار ، ألا يعرف الإنسان الطائر الذي كبِر عنده ؟ ما زال الرجل ينكر أنه سرق طائر فيصل » .

ـ إذا سألتني سأقول : إنني أظن أنه هو الذي سرق الطير . لكنْ لا دليلَ لدينا . لقد سبق أن استدعيته إلى هنا ، وأنكر آنذاك الأمر .

« الإنكار قلعة اللص » . هكذا اتفق الاثنان .

قال المختار : « لكنني لن أترك هذا الأمر يتطور أكثر . إذا احتاج الأمر ، سأطارده حتَّى ينال جزاءه » .

ـ ما بدر منه من قلة احترام تجاهي ليس مهماً . لكن أن أرى بعيني الحجل الذي أردت شراءَه منه هو ذاته طائر فيصل ، وهو يكذب دون أن يخجل . أليس عاراً وذنباً ؟ لقد بحث الصبيُّ عن طيره أياماً . أعلم أيضاً كم حزن الجد حمزة . لم يتبقَّ أحدٌ في القرية لم يسأله الرجل المسكين عن الطير . الإنسان يخاف من الله . هل يترك ذلك الرجل العجوز والطفل الصغير أياماً في الأسى والألم ؟

ـ لا تقلق يا أستاذ . كما قلت لك ، أنا أعرف ماذا سأفعل به . يجب أن يُوضع حدٌّ لانعدام أخلاقه ، وإلا فلن نأمن السكينة والاستقرار في القرية .

وبعد أن تناولا الطعام الذي أعدَّته زوجة المختار ، خرج الاثنان إلى الكروم الواقعة على ساحل كزليرماك . وبينما كان المختار يحدِّث يوسف عن وفرة التفاح على الشجرة ، كان يوسف يفكِّر في هجران طائر فيصل .

سمعت القرية بأسرها بأمر حبس المختار للصياد دوران ؛ بسبب ما بدر منه من إهانة للأستاذ يوسف ، وهكذا أصبح الجميع يلعنه على ما فعل . لم يمرَّ يوم الأحد ذلك بسهولة على يوسف .

لم يتمكَّن يوسف من الذَّهاب إلى صلاة العصر . كان المساء صعباً في الكرم الواقع على ساحل النهر . ولكي يلحق بصلاة المغرب خرج هو والمختار من الكرم متوجِّهين إلى القرية .

* * *

القسم السادس

أسند الجدُّ حمزة شاويش ظهره إلى شجرة التوت ، التي كانت في فناء البيت . كان يشاهد غروب الشمس من على تلة جبل سيفري . وقبل أن تمرَّ بضعُ دقائق بدأت الشمس كأنها تختفي من خلف الجبل .

شبَّه حمزة شاويش عمره بالشمس . إذ يولد المرء كالشمس ، ثمَّ يكبر ، ثمَّ يموت . وتشرق مجدداً مثل الإنسان الذي يُعاد إحياؤه مجدداً . ثمانون عاماً كيف انقضت ومرَّت ؟

« أيام طفولتي مرَّت كأنها أمس » . قال محدِّثاً نفسه . تذكَّر أيام شبابه وغَرِقَ في الذكريات .

دخل طفلٌ من باب الفناء ونادى بحماس : جدُّ حمزة ! جدُّ حمزة !

قطع صوت الطفل المنفعل خيال حمزة شاويش لأيام شبابه ، فأدار وجهه باتجاه مصدر الصوت : أهذا أنت يا يافوز ، ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟

ـ العم حسن ! العم حسن !

ارتبك الجدُّ حمزة شاويش من الانفعال ، مشتتاً ، لا يعرف ما قال : حسن ؟ مَنْ حسن ؟

ـ ابنك الذي في ألمانيا . لقد أتى .

ـ ماذا ! هل أتى ابني حسن ؟ أين هو ؟

ـ إنه ينزل حقائبه من الباص .

أمسك الجدُّ حمزة من شدة الانفعال بشجرة القصب ، ووقف على قدميه ، فقال : « الحمد والشكر لك يا ربُّ ، لقد عاد حسن ، لقد عاد » .

بدأ الجدُّ حمزة بالسير نحو الساحة التي يوجد فيها الباص . وفي الطريق عانق حسن والده . اشتمَّ حمزة شاويش رائحة ابنه وقبَّله . كانت بهجةً تحكي لقاء ابنه بعد زمن من الفراق . تجمَّعت الدموع في عينيه ، ثمَّ تناثرت على خدَّيْه .

ولدى رؤية ابنه حسن بصحة جيدة ، قال حمزة شاويش : « لك شكرٌ لا يُعَدُّ ، ولا يُحصى لِمَا جعلتني أراه هذه الأيام يا ربُّ ! » .

كان يردِّد ذلك ، ويدعو ربَّه على طول الطريق . علم الأقرباء بقدوم حسن فهُرعوا إلى بيت حمزة شاويش . كان النساءُ يدخلن واحدة تلوَ الأخرى عند السيدة أمينة ، التي لم تكن تعلم من الفرحة

بماذا ترد عليهن عندما كنَّ يقلنَ لها : « لقد أضاء وجهك من الفرحة » .

قدَّم حسن الشوكلاته الألمانية للقادمين ، أما السيدة أمينة فقدَّمت قطع الحلوى للصغار ، وأعدَّت القهوة للكبار . كان حمزة شاويش أكثر مَنْ سأل ابنه : كيف حدثت الإصابة ؟ هل توجد جروح في أماكن أخرى من جسدك ؟

ـ لا يا أبي . فقط قُطع طرفا هذين الإصبعين . كان ذلك بسبب تشتُّتٍ في الانتباه .

السيد بكير : « حمداً لله على السلامة يا بُنيَّ . لقد ستر الله . تصدَّقوا .

بحثت عيون حسن بين الأطفال في الغرفة عن فيصل .

شعر بألم في قلبه . تحرَّك داخله شيءٌ لم يتحمله ، فقال : أبي هل فيصل وهجران ليسا هنا ؟

خيَّم الصمت على الغرفة برهةً ، لم يعلم حمزة شاويش بماذا سيجيبه .

ردَّ والده حزيناً : « كان فيصل هنا في الصباح . لا بُدَّ أنه ذهب إلى الكروم . سيعود سريعاً . ليس له علم بأنك عدت » .

ـ هل ذهب هو وهجران معاً ؟

لم يُجب أحدٌ حسناً عن سؤاله . لم يكن حسنٌ يعلم بموت ابنته هجران ، إذ لم يخبره أحدٌ سابقاً كي لا يحزن . وبقي هكذا لا علم له بالأمر . لم يُظهر هذا الصمت الذي خيَّم على الغرفة أيَّ تفسير له . بدأ حسنٌ بالانفعال ، وشعر بأنَّ قلبه فارغٌ .

ـ هل جرى لهجران شيءٌ يا أبي ؟

شبَّك حمزة شاويش شفاهه محاولاً عدم البكاء : « البقية في حياتك ، لقد ذهبت هجران إلى الحياة الآخرة ، للأسف لقد فقدناها » .

لم يمسك والده نفسه وبدأ بالبكاء .

ـ ماذا ؟ ماتت ! هجران ماتت !

وضع حسنٌ يديه على وجهه محاولاً إخفاء بكائه . حاول السيد بكير مواساة حسنٍ : « لا تحزن يا بُنيَّ ، الحزن لا يعيد ما فُقد . الله أعطى والله أخذ . لقد انتهى عمرها . إنَّ الأجل ينتهي في وقته ليس قبل أو بعد دقيقة من موعده . متى أراد الله الأجل يكون . وكلنا سنموت ، أليس كذلك ؟ سواء اليوم أو غداً ما الفرق ؟ لكل أجلٍ كتاب . جعلها الله خاتمةَ الأحزان » .

قال حمزة شاويش : « احتسب أمرك عند الله ، يا بُنيَّ . ماذا نفعل ؟ هذا قدرٌ . فلنصبر » .

ـ لماذا لم تخبروني يا أبي ؟

ـ لم نُرِدْ أن تحزنَ يا بُنَيَّ .

وضع حسنٌ يديه على رأسه ، ولم يرفعها ، ثمَّ قال بصوت باكٍ : ما كان مرضُ هجران ؟ ألم ترسلوها إلى الطبيب ؟

ـ لقد قال الطبيب : إنها مصابة بالتهاب سحايا دماغية . لم تُفِدِ الحقنُ ولا الدواء .

أنهى الأذانُ بصوت الأستاذ يوسف الصمتَ الذي خيَّم على الغرفة .

رفع حسنٌ رأسه لدى سماعه الأذان . أخرج منديلاً مسح به دموعَه . رأى حمزة شاويش ابنه حسناً يقف ، فقال له : « هيا يا بُنَيَّ توضَّأ ، سترتاح ، فليعطِك اللهُ الصبر » .

صلَّى الجميع صلاة المغرب ، ثمَّ جلسوا للطعام . قام حسنٌ عن المائدة بعدما قال : « لقد أكلت من قبلُ ، ليس لي شهيَّة الآن » . فلم يلحُّوا عليه .

خرج إلى خارج البيت يفكِّر في هجران . كأن غيوماً سوداء غطَّت القرية . لم يكن يظهر أحد في القرية . هجران ذات الشعر الأشقر عاشت في خياله . شعرها كاللؤلؤ يتموَّج في العاصفة ،

كأنها تقول لأبيها : « أهلاً وسهلاً يا أبي الحبيب ، حللت أهلاً ووطئت سهلاً » .

مسح حسنٌ دموعه التي انحبست في عيونه .

هناك صوت يسعل من بعيد ، نظر حسنٌ إلى مصدر الصوت ، إذ بشابٌّ يقف أمام الباب . لم يتمكَّن حسنٌ من معرفة مَنْ ذلك القادم . لم يكن يشبه أيَّ شخص يعرفه . خاصة أن حسناً كان يعرف كلَّ مَنْ في القرية .

قال يوسف : « السلام عليكم » .

ـ وعليكم السلام .

ردَّ عليه حسنٌ لكنه لم يعرفه بعدُ . أدرك يوسف أن حسناً لا يعرفه ، فقال : « أنا يوسف إمام القرية . أنا أعتقد أن حضرتك والد فيصل » .

ـ نعم ، أنا والد فيصل .

ـ أهلاً وسهلاً . لقد حدثني فيصل عنكم كثيراً .

ـ يبدو أنكم باشرتم عملكم بعدما سافرتُ إلى ألمانيا . لا تؤاخذني لم أعرفك .

ـ حاشا لله . ومن أين لكم أن تعرفونني ؟ لم نتقابل قط .

دخل حسنٌ ويوسف معاً إلى غرفة حمزة شاويش . كانت السيدة

أمينة تزيل المائدة ، وتكنس المكان .

قال يوسف : تهانينا بفرحة عودة السيد حسن يا جدُّ حمزة .

ردَّ الجدُّ حمزة : « شكراً يا أستاذ . شكراً لله على عودة حسن » .

ـ ألم أقل : لا تحزن . كلما كان القلب سليماً التقى الإنسان بالإنسان .

ـ نعم ، هكذا كنت تقول . الإنسان دائماً يفكِّر ويقلق عندما يكون في غير وطنه ، قد يحدث معه مشكلةٌ أو معاناةٌ ، ما يستطيع فعله هو القلق ، لا تستطيع أن تعرف ماذا سيحدث .

ـ أنت محقٌّ يا جدُّ ، أين فيصل ؟

قال الجدُّ حمزة : كان هنا في الصباح . لم يحدث أن أتى للبيت متأخِّراً إلى هذا الحد . تُرى هل جرى شيءٌ للصبيِّ ؟ اسألي يا ابنتي أمينة أبناء الجيران إذا كان أحدُهم قد رأى فيصل ؟

خرجت السيدة أمينة على عجلة من أمرها لتسأل رجباً أكبر أولاد الجيران ، إذا كان قد رأى فيصل أم لا . بدأ تأخُّر فيصل إلى هذا الوقت في العودة إلى البيت يُخيفها .

قال رجب : « يا خالة أمينة لقد ركب فيصل وأحمد من عند النهر في شاحنة الرَّمل متوجِّهين إلى المدينة » .

ـ ماذا ؟ ذهبا إلى المدينة ؟

ـ نعم ، ذهبا إلى المدينة في وقت الظهيرة .

ـ آه يا ربُّ . ماذا سيفعل أطفال بهذا العمر في المدينة ؟

عادت السيدة أمينة راكضةً إلى البيت . وأخبرت الجالسين في الغرفة بذَهاب فيصل إلى المدينة . بدأ الجميع يشعر بالتوتُّر . وبسرعة قال يوسف للجالسين في الغرفة : بما أنه ذهب مع أحمد ، فهذا يعني أنهما ذهبا إلى بيت الآغا حيدر . لا يوجد ما يثير القلق . لا تخافوا .

والد فيصل : « تُرى من هو الآغا حيدر ؟ » .

ـ إنه أحد صيادي المدينة .

ـ ماذا سيفعل فيصل في بيت الآغا حيدر ؟

ـ سيد حسن ، سأشرح لك الأمر في الطريق ، الآن دعونا نجد حافلة ، ونذهب إلى المدينة . فلنرَ إذا كان الأمر مثلما توقَّعت بأنهما ذهبا إلى بيت الآغا حيدر أم لا ؟

ـ بالتأكيد يا أستاذ ، هيا فلنذهب بسرعة .

هُرع أحد أقرباء حسنٍ الشبان إلى بيت رجب الأقرع . وطلب منه أن يذهبوا بعربته إلى وسط المدينة . ودون أن يتأخَّر رجب الأقرع توجَّه بهم إلى الطريق أسفل المدينة . ركب كلٌّ من حسن ويوسف

والسيد بكير الباص في ظلمة الليل متوجِّهين إلى طريق المدينة .

بدأ يوسف يسرُد ما حدث ، فقال : « بعدما ماتت هجران حزن فيصل كثيراً ، أكثر من الحزن الذي يخلِّفه عدم حلول الربيع . وفي إحدى الليالي أتى الجدُّ حمزة لي ومعه فيصل » .

وتابع يوسف قائلاً لي :

« إن هناك ما يخيف فيصل طالباً منِّي أن أرقيه . وإضافة إلى الرقية أخذته إلى أحد الأطباء الذين أعرفهم في المدينة . طلب الطبيب منِّي العناية به . ومنذ ذلك الوقت أصبحنا صديقين . وفي يوم ما ذهبنا معاً إلى الكروم لنتنزَّه ، وبينما كنا نتنزَّه وَجَدَ فيصل بيضتي طائر حجل . أخذنا البيضتين ووضعناهما تحت دجاجة الجدَّة خديجة . خرجت صغار الحجل من البيضتين عندما فقستا . أسمى فيصل طيرَه « هجران » ، ومنذ ذلك الوقت لم نتمكَّن من إبعاد فيصل عن طيره . واتفقنا أن نطيِّره من فوق المئذنة عندما يبدأ بالزقزقة » .

وبعدها شرح يوسف لحسنٍ ما فعله الصياد دوران ، ثمَّ قال حسن : « منذ أن كان صغيراً كان شخصاً عديم الأخلاق » . ومن جهة أخرى أُعجب حسنٌ باهتمام يوسف بابنه فيصل وعنايته به .

ظهرت أضواء المدينة من بعيد .

وصل فيصل وصديقه أحمد في ذلك اليوم المدينةَ . أوقف سائق شاحنة الرمل شاحنته أمام الإنشاءات ، التي كانت عند ساحل المدينة قائلاً : « لقد وصلنا المدينة يا أولاد ، كما قلت لكما أولاً اركبا الباص الصغير ، ثمَّ انزلا في موقف « أمام القلعة » وهناك اسألا أحدهم عن العنوان » .

ردَّ أحمد : « شكراً يا عمُّ . سلمتَ » .

ـ عفواً يا أولاد ، هيا مع السلامة .

واتَّبع الصديقان إرشادات سائق الشاحنة فعبرا باتجاه الطريق المقابل ، ثمَّ أخذا الباص الصغير المتوجِّه إلى مركز المدينة . دفع أحمد أجرة الباص . كان أحمد قد مكث عند عمِّه في المدينة من قبلُ لمدة أسبوع ؛ لذلك فهو يعرف المدينة بشكل أفضل من فيصل . كما أنه أكبر من فيصل سناً . ومن دون تأخير ذهبا إلى مركز المدينة .

قال أحمد : لو سمحتَ يا عمِّي السائق أنزلنا في موقف « أمام القلعة » .

توقَّف الباص على يمين الطريق ، فنزل فيصل وأحمد من الباص الصغير وباشرا المسير .

قال فيصل : « إذا أردت فلنسأل ذلك العمَّ عن العنوان » .

سأل الاثنان الرجلَ الذي أشار إليه فيصل عن العنوان الذي كانا يقصدانه .

قال الرجل : « إنه في هذا الحيِّ ، لكن لا أعرف في أيِّ شارع يا أولاد . اذهبوا إلى الأمام يوجد شرطيٌّ مرور ، اسألاه . أعتقد أنه يعرف » .

وفعلاً توجَّه الاثنان إلى رأس الشارع الذي وصفه شرطيُّ المرور لهما . كان اسم الشارع المكتوب في العنوان هو ذاته المكتوب على السارية الإلكترونية .

قال أحمد : حسنٌ ، هذا هو المكان . انظر إلى الأمام ، إنه ذات الاسم المكتوب . الآن علينا أن نجد المنزل . كم كان رقم المنزل ؟

قال فيصل : « خمسة وثلاثين . شارع تشاغلاين رقم خمسة وثلاثين » .

وقف الاثنان أمام الباب ، كان اسم حيدر أتيجي مكتوب بجانب الجرس .

قال أحمد : حسنٌ ، إنه هنا . لا يوجد ما يقلق . كما خططنا حدث .

ـ ستنتظرني في الموقف . لن أتاخر كثيراً حتَّى آتي . سأضغط الآن على الجرس .

ضغط أحمد على جرس بيت الآغا حيدر بتوتر . بدأ الانتظار حتَّى فتح الباب دون تأخير كثير .

مدت امرأة في الخمسين من عمرها رأسها من الباب : هل تريدون شيئاً يا أطفال ؟

سأل أحمد : هل هذا هو بيت العم حيدر يا خالة ؟

ـ نعم هنا ، هل هناك شيء ؟

ـ نحن قادمان من قرية التفاح . اسم والدنا الصياد دوران . لدينا خبر من والدنا نريد إبلاغه للآغا حيدر . هل هو داخل البيت ، يا تُرى ؟

ـ ليس في البيت ، لكنه سيأتي بعد قليل ، ادخلا إلى الداخل .

فرح أحمد ؛ لأن الآغا حيدر ليس في البيت ، وبينما كان هو وفيصل يصعدان السلالم همس في أذن فيصل : جميلٌ جداً أنَّ الآغا حيدرَ ليس في البيت .

نظرت زوجة الآغا حيدر إلى الوراء وسألت : « هل قلت شيئاً يا بُنَيَّ ؟ » .

أجاب أحمد متوتراً : « لا يوجد شيء يا خالة . فقط كنت أقول

لأخي : إن بيت الآغا حيدر جميلٌ جداً » .

دخلوا جميعاً إلى غرفة الضيوف . كان يوجد على جدران غرفة الضيافة صور لحيوانات مختلفة . عندما رأى فيصل صورة طائر الحجل بدا الانفعال عليه ، فجلس على طرف الأريكة يشاهد الصور المعلَّقة على الحائط .

ـ عمكما الآغا حيدر الآن في النادي ، سأهاتفه كي لا يتأخَّر . هل قلتم : إنكم من قرية التفاح ؟

ـ نعم من قرية التفاح .

ـ ما اسم والدكم ؟ كِبَرُ سنِّي جعلني أنسى .

أجاب الاثنان : « دوران . الصياد دوران » .

ذهبت زوجة الآغا حيدر لتهاتف نادي الصيادين ، أما أحمد وفيصل فبدأت عيونهم بشكل واضح ، تبحثُ عن مكان القفص .

وبعد أن انتهت من الهاتف جلست على الأريكة عائدة لفيصل وأحمد : لقد أخبرت الآغا حيدر ، لن يتأخَّر كثيراً . ما اسمك أنت ؟

أجاب أحمد : اسمي سليم ، واسم أخي عصمت .

ـ حقاً ؟ أسماؤكما جميلة . هل تذهبان إلى المدرسة ؟

ـ أنا أنهيت الصف الخامس ، وأخي أيضاً سيُنهيه هذا العام .

ـ رائع جداً .

لم يشأ أحمد أن يضيع الوقت . نظر الاثنان إلى بعضهما بعضاً . كان فيصل يعلم ما سيفعل . قال أحمد لزوجة الآغا حيدر : إنَّ أخي يريد أن يقضي حاجة ، هل من الممكن أن يذهب إلى الحمام يا تُرى ؟

ـ بالطبع يا بُنَيَّ يمكنه الذهاب . تعال يا بُنَيَّ لأرشدك إلى طريق الحمام .

دخل فيصل الحمام . وعندما عادت السيدة إلى غرفة الضيوف خرج بهدوء من الحمام ، ودخل الغرفة المجاورة .

وعندما دخل من الباب سرعان ما تقابل وجهه ووجه هجران . ومن شدة الفرحة كان على وشك أن يصرخ . وبسرعة أمسك بالقفص ، ومشى على رؤوس أصابعه إلى الباب الخارجي مغلقاً الباب بهدوء ، ثمَّ توجَّه إلى الشارع ، ومن شدة الانفعال بدأ يركض .

لم يتحمل أحمد البقاء في مكانه ، كان يسأل نفسه : « يا تُرى هل نجح فيصل ؟ ماذا إذا لم يجد هجران في مكانها ؟ ليتنا نستطيع أن نهرب قبلَ أن يأتي الآغا حيدر إلى البيت » .

انشغلت زوجة الآغا في المطبخ قليلاً ، ثمَّ عادت إلى غرفة الضيوف بجانب أحمد .

قال أحمد متظاهراً بأنه يريد قضاء حاجته : « إذا سمحتم يا خالة ، أنا أيضاً أريد الذهاب إلى الحمام » .

ـ بالطبع يا بُنيَّ ، هل خرج أخوك ؟

ـ نعم لقد خرج قبل قليل . عندما أتينا من القرية أحضرنا معنا الفواكه ، التي أرسلها أبي لكم ، وكي لا نتعب في حملها وضعناها عند البقالة الواقعة قبل بيتكم . لقد ذهب أخي ليحضرها .

ـ لماذا أتعبتم أنفسكم يا بُنيَّ ؟

نهض أحمد من الأريكة متوجِّهاً إلى الحمام . وبدأت زوجة الآغا حيدر بغسل الأطباق المتبقية منذ الصباح .

مضى على هروب فيصل مع طائر الحجل من البيت ما يقارب عشرين دقيقة . كان أحمد خائفاً من قدوم الآغا حيدر ، فقال : « يا خالة يبدو أن أخي لم يجد البقالة التي تركنا عندها سلة الفواكه ، وإلا فإنه لا يتأخَّر إلى هذا الحدِّ . سأذهب وأراه كي لا يضيع في المدينة » .

ـ نعم لقد تأخر . ربما لم يجد البقالة . اذهب لترى أين أخوك .

خرج أحمد متوتِّراً من البيت . وبدأ بالركض كأنه هاربٌ من خطر

كبير . لا يوجد وصف للطريقة التي كان يركض فيها أحمد في الشارع . كانت زوجة الآغا حيدر مشغولة في تجفيف الأطباق في المطبخ ، ولا علم لها بما جرى .

التقى فيصل وأحمد في المكان الذي اتفقا عليه . كانا سيطِيران من الفرحة ، فرحة إنقاذ هجران ، بتلك الفرحة ركب الاثنان الباص الصغير متوجِّهين إلى طريق الإنشاءات عند مخرج المدينة . كانت هجران في القفص في حضن فيصل ترفرف كثيراً ، كأن منقارها يريد أن يقول : إنها تريد تقبيله .

وصل الاثنان إلى مكان الإنشاءات ، لكنهما لم يجدا شاحنة الرَّمل . بدأ الاثنان يفكِّران كيف سيذهبان إلى القرية .

قال فيصل : إذا أردت فلننتظر قليلاً . انظر إحدى شاحنات الرَّمل قادمة .

ردَّ أحمد : كيف ننتظر ؟ قد يطاردنا الآغا حيدر . إذا رأى أننا هرَّبنا هجران . من يعلم بماذا سيفكِّر . يجب أن نكون في القرية قبل الساعة الواحدة .

ـ فلنذهب إذن باتجاه طريق أنقرة ، ومن هناك نركب حافلة ، وننزل عندما تمرُّ في جسر كيزليرماك . من هناك يوجد مسافة طريق لمدة ساعة .

توجَّه الاثنان إلى طريق أنقرة الإسفلتي . لوَّحوا لكثير من الحافلات بأيديهما ، لكن لم تتوقفْ أيٌّ منها لهما . ملَّ الاثنان من الانتظار حتَّى قال أحمد : فلنمشِ ، لا نستطيع الانتظار هكذا . نمشي وفي الوقت نفسه نلوِّح للحافلات التي تأتي من خلفنا .

بدأ الاثنان بالمشي على طول الطريق . كان فيصل يحمل القفص .

لقد اتخذا قرار الذَّهاب إلى المدينة في آخر لحظة ، لم يكن أحدٌ يعلم بهذا القرار .

قال فيصل : « كم سيبتهج أخي يوسف عندما يعلم بأننا أنقذنا هجران ! أليس كذلك ؟ » .

ـ ألن يبتهج لإنقاذ هجران ؟ بالطبع سيبتهج . ولكننا لم نخبره بقدومنا إلى المدينة . إذا لم نعد في المساء سيقلقون علينا كثيراً .

ضاعف الاثنان خطواتهما . كانت شمس العصر تُسيل عرقهم بشدة . أدركا أنهما قد تعبا كثيراً ، فجلسا فوق العشب واستظلاَّ بأوراق الصفصاف الموجودة على جوانب الشارع للاستراحة قليلاً . كانت حقول عَبَّاد الشَّمس تملأ أطراف الشارع .

قال أحمد لفيصل : « هيا فلننهض . يكفينا استراحة . لقد أُذِّن

لصلاة العصر منذ فترة . يجب أن نعود إلى القرية قبل احتدام الظلام » .

نهض الاثنان على أقدامهما . مرَّت سيارة بيضاء اللون . لم يذهب بعيداً . عجَّ المكان بأصوات فراملها ، توقَّف إلى الأمام قليلاً . بدأ أحمد وفيصل يرمقان السيارة بنظراتهما . نزل منها رجلٌ ومعه كلبٌ ضخمٌ .

صرخ أحمد متوتِّراً : « اهرب يا فيصل إنه الآغا حيدر » .

بدأ فيصل وأحمد بالركض باتجاه حقول عَبَّاد الشَّمس خائفين . كان أحمد يحمل طائر الحجل . التفت فيصل خلفه ، فرأى الكلب ينبح خلفه ويركض مطارداً إياهما .

كان فيصل دائم الخوف من الكلاب . كان يركض بانفعال وخوف ، إذ بصوت سلاح يصدر من خلفه . إنه الآغا حيدر ذو الجسم السمين ، الذي لا يقوى على الركض كثيراً . صرخ من وراء أحمد وفيصل : لا تهربا ! لا تهربا ! .

لم يتمكَّنا من الركض أكثر في حقول عَبَّاد الشَّمس . بدأت بعض الجروح من ذراعيهما وساقيهما بالنزيف . ولدى سماعهما صوت الكلب من خلفهما ، ودون الشعور بألم جروحهما التي كانت تسيل حاولا بكل قوتهما الهرب ، فعبرا حقول عَبَّاد الشَّمس حتَّى ظهرت

أمامهما شجرة قصب كبيرة . كان صوت الكلب يقترب أكثر فأكثر . لم يعرفا ما يفعلان .

قال فيصل بصوت باكٍ : « سيأخذ هجران منا . سيأخذها » .

ـ لا تخف . لن يأخذ هجران منا . هل ستعطيه إياها ؟ خذ القفص هيا وطيِّرها .

ـ ماذا ؟ أطيِّرها ؟

ـ إذا لم نطيِّرْها سيأخذها منا . هيا بسرعة . إنهم يقتربون منا .

أخذ فيصل القفص من أحمد . كانت هجران تنظر إلى فيصل بعيون تتوسل . كأنها لا تريد فراق فيصل . وفجأة خرج الكلب من بين الحقول وبدأ ينبح . كان أحمد يحاول إعاقة الكلب عن أن يعضَّهما بواسطة جذع شجرة عَبَّاد الشَّمس .

أخرج فيصل هجران من القفص متوتِّراً ، فقبَّل رأسها وجناحيها ، قائلاً : « طِيري يا هجران طِيري » . وتركها في الهواء .

لم تطرْ هجران كثيراً . هبطت وسط الأعشاب القريبة .

بدتْ هجران كأنها لا تريد فراقهما .

ركض كلب الصيد الذي رأى طائر الحجل يهبط وسط الأعشاب إلى هناك بسرعة . وقبل أن يلحق بهجران نبح الكلب في السماء .

وعندما نبح سرعان ما سُمع صوت طلقتين من بندقية تطاردهما .

صرخ فيصل : « لقد أصاب طَيْري ! أصابه ! » .

تقلَّبت هجران في الهواء قليلاً ، ثمَّ وقعت في القصب الذي كان على العشب .

بدأ فيصل وأحمد بالبكاء . أتى الآغا حيدر غضبان ، ووجَّه بندقيته نحو فيصل وأحمد ، قائلاً : « هل أقتلكما ؟ عليَّ أن أقتلكما أنتما أيضاً ؟ هل أعاقبكما على سرقة طَيْري ؟ » .

عُقِدَ لسانُ فيصل وأحمد من الخوف . لم يعلما ما يقولان حتَّى قال فيصل باكياً : « ذلك الحجل لي . . . » .

وقبل أن يتمَّ جملته ، بدأ الآغا حيدر بركل فيصل . التفت أحمد إلى رجل الآغا قائلاً : ليس هو المذنب . أنا من هرَّبت الطَّيْر ، لا تضربه ! لا تضربه ! » .

تغلَّب الآغا حيدر على فيصل وأحمد وذهب راكضاً إلى مكان طير الحجل . ومن دون أن يبتعد كثيراً خرج صوت من المستنقع الواقع بين القصب يقول : « النجدة ! أنقذوني ! » .

استغرب أحمد وفيصل فنهضا وذهبا بسرعة إلى مكان الصوت ، وعندما وصلا طرف المستنقع شاهدا الآغا حيدر يتدحرج داخل الطِّين في المستنقع .

قال أحمد لنفسه : « هذا جزاء ما فعلته بنا » .

ثم جلس الاثنان ، وبدأا يشاهدان توسل الآغا حيدر .

كان الآغا يتوسل المساعدةَ قائلاً : « أرجوكما ساعداني يا أولاد . أنقذاني ! » .

كان كلما تحرَّك يغرز في الطين أكثر . كانت تلك اللحظة الأولى التي يشعر فيها الآغا حيدر ، كمْ هو قريب من الموت . لقد نسي أمر الطَّيْر ، كلُّ ما كان يريده هو إنقاذ نفسه بسرعة .

ـ هيا ساعداني يا أولاد ، أتوسل إليكما . أنقذاني من هذا المستنقع .

قال أحمد : « عندما كنت تضربنا لم تقل ذلك ، فلتنل جزاء ما فعلت بنا » .

لم يستطع فيصل الوقوف مكانه ، أدرك أحمد رغبة فيصل في أن يساعده ، فقال له : « لا يا فيصل ! دع هذا الرجل يموت في المستنقع . هل نسيت ما فعله بنا ؟ » .

قال فيصل : « لكنه سيموت ، إنه يُطمر في الطين » .

في تلك اللحظة تخيَّل فيصل أنَّ يوسف يقول له : « هيا ! لماذا تقف ؟ هل يُترك الإنسان للموت ؟ » .

في ذات الأثناء كان مكان الركَلات التي ركله إياها الآغا حيدر يؤلمه . لم يعرف ماذا يجب أن يفعل حتَّى سمع صوتاً يشبه صوت أخيه يوسف يقول : « هيا بسرعة ! » .

وبسرعة هُرِع فيصل يبحث عن شيء يمسك به حتَّى عثر على جذع قصب طويل قليلاً ، ثمَّ ركض بسرعة باتجاه طرف المستنقع .

قال للآغا : « أمسك بها ! إياك أن تترك طرفها » .

أمسك الآغا حيدر بالجذع الذي مدَّ به فيصل إليه بتوتر . طلب فيصل من أحمد أن يساعده . ومن دون رغبة أتى أحمد وساعد فيصل ، وببطء سحب الاثنان الآغا حيدر إلى شاطئ المستنقع .

كان الطين قد وصل إلى غاية حلقه ، وبصعوبة استطاع رمي جسده على العشب ، وبعدها ضمَّ عنق فيصل إليه مسروراً لإنقاذه إياه . وقبَّل مقلتيه وخدَّيْه ، ثمَّ قال : « سامحني يا بُنيَّ ، سامحني » .

خلع الآغا حيدر المعطف والسروال اللذين كان يرتديهما .

تناول الآغا البندقية بسرعة من المكان الذي سقطت فيه ، ووقف أمام أحمد وفيصل فقال : « أقسم بالله أنني من الآن فصاعداً لن أحمل البندقية في يدي ، فلتكونا شاهدَيْن على ما قلتُ » .

وبدأ يضرب البندقية التي معه بالحجر ، ثمَّ حطمها ورمى بها في

المستنقع . أمعن فيصلٌ وأحمدُ النظرَ إلى الآغا حيدر وهو مجهشٌ بالبكاء .

ـ ثمَّ ماذا حدث يا طُيُوري الحبيبة ؟

وبعدما أنقذ فيصلٌ وأحمدُ الآغا حيدر من المستنقع بدؤوا جميعاً بالبحث معاً عن هجران بين العشب حتَّى وجدوها جريحة بين العشب . فرح فيصل ؛ لأن طيرَه لم يمت ، فقبَّل جناح هجران الجريح مرات كثيرة . وبسرعة توجَّهوا إلى سيارة الآغا حيدر ، فركبوها قاصدين طريقهم إلى المدينة .

كان أول ما قاموا به أنْ أخذوا هجران إلى طبيب بيطري ليداويَ جُرحها ، ثمَّ أتوا إلى بيت الآغا حيدر . لم يكن يعرف الآغا حيدر كيف سيقدِّم لهما مقابلاً لمعروفهما .

تناولوا العشاء معاً . وبينما كان الآغا حيدر يسرُد لهما ذكرياته في الصيد ، كان تعب ذلك اليوم خيَّم على فيصل وأحمد فغاصا في النوم على الأريكة التي كانا يجلسان عليها .

في ذلك اليوم وصل يوسفُ وحسنٌ والسيد بكيرٌ في وقت متأخِّر إلى بيت الآغا حيدر ، فأخبرهم الآغا حيدر بما حدث بالتفصيل . واعتذر من والد فيصل مرات كثيرة . لم يشأْ أن يترك فيصل في ذلك اليوم ، فقال لهم :

« تنامون عندي هذه الليلة وتكونون ضيوفي . وغداً أترككم تذهبون إلى القرية . ابقوا عندي هذه الليلة » .

قَبِلَ يوسف وحسن والسيد بكير البقاءَ عند الآغا حيدر في تلك الليلة .

ظلَّ فيصل نائماً حتَّى وقت متأخِّر من الصباح دون أن يكون له علم بعودة والده . وعندما استيقظ رأى والده يقف بجوار رأسه . لم يصدِّق عينيه . ظنَّ أنه يتخيل ، وكاد قلبه يتوقف من الانفعال . وبشوق عانقه والده ، وقبَّله كثيراً من عينيه وخدَّيْه . لم يكن أحدٌ من الجالسين في الغرفة قد شاهد من قبلُ مثل هذا الشوق والعناق بين أبٍ وابنه .

في ذلك اليوم في وقت الظهيرة عادوا جميعاً مسرورين إلى القرية . لم يبق من لم يفرح ؛ لأنهم وجدوا هجران . أما المختار فألقى الصياد دوران في الحبس بتهمة السرقة . وفي كلِّ صباح ومساء كان كلٌّ من هجران وسلطان يغرِّدان كأنهما يغنِّيان أجملَ الأغاني في قفصيهما .

ولقد تحدَّث أهل القرية أياماً كثيرة عمّا فعله فيصل وأحمد .

وفي أحد أيام الجمعة اجتمع جميع أهل القرية بعد صلاة الجمعة أمام المسجد . حضر الآغا حيدر وأخبر الجميع عن العمل البطولي

الذي قام به فيصل ، ثمَّ صعد فيصل وأحمد إلى مئذنة المسجد . نظرا إلى الموجودين في الأسفل ، وبانفعال وحماسة قبَّلا هجران وسلطان ، ثمَّ طيَّروهما إلى السماء . طار طيرَا الحجل إلى الجبال وسطَ أصوات فرحة الأولاد .

كان ذلك اليوم عيدَ بهجةٍ في قريتنا يا طُيُوري الحبيبة .

* * *

المحتوى

القسم الأول 5

القسم الثاني 15

القسم الثالث 33

القسم الرابع 49

القسم الخامس 66

القسم السادس 84

المحتوى 109

* * *